الفصل الرابع

التعامل العقلانى مع المتغيرات التاريخية

ربما نكون قد استطعنا فى الفصل السابق وما قبله أن نثبت بعض الحقائق الدالة على نفس النزعة العقلانية والعملية فى حياة المجتمع اليمنى القديم والزهد الواضح فى الميل إلى الغيبيات والمتافيزيقيات المسرفة ، إنطلاقا من حقائق جغرافية واقتصادية واجتماعية واضحة كما رأينا ، ويبقى علينا فى هذا الفصل أن نستكمل الجانب الآخر من هذه المسألة ، وهو أنه إذا كان اليمنيون منذ وقت مبكر قد سجلوا مؤشرات ملحوظة تؤكد اتساع الروابط القوية بين العقل والعمل والزهد فيما وراء الطبيعة فى نطاق حياتهم الخاصة والعامة داخل موطنهم ، فما هو موقفهم من مجمل المتغيرات التاريخية الهامة خارج موطنهم ؟ وكيف تعاملوا معها فى فترات قوتهم السابقة ومراحل ضعفهم اللاحقة بالذات ؟ ؟ كيف تعاملوا ثقافيا ووجدانيا فى فترات ضعفهم مع أطماع الغزاة الاجانب وحملاتهم المؤطرة بتيارات ثقافية ودينية شديدة التعقيد من يهودية ومسيحية على السواء حتى ظهور الدعوة الإسلامية الأقرب اليهم لحما ودما ، وكيف تعاملوا معها أيضا ومع كل متغيرات التاريخ اللاحقة حتى يوم الناس هذا ؟ هذا ما سنحاول البحث فى الإجابة عليه من خلال فقرات هذا الفصل .

الفرض والتفسير المنهجى

مشكلة المرونة أو التصلب الحضارى والثقافى فى كل المجتمعات والدوائر الحضارية والثقافية داخل الأمة أو المجتمع الواحد أحيانا ، ومدى قابلية كل ذلك للتأثر بما يجرى أو يجد من حولها من متغيرات تاريخية من ناحية ، والتأثير فيها من ناحية أخرى ، بمقاييس أسرع وأيسر أو العكس ؛ هى من المشكلات البارزة التى شغلت الكثير من الدارسين والباحثين فى حقول العلوم

والدراسات الإجتماعية والانسانية المختلفة الحديثة وبالذات المهتمين بفرع علم الانثروبولوجيا الثقافية ، ونستطيع تحديد النتائج المستخلصة من هذه الدراسات والخطوط العريضة شبه المتعارف عليها فى هذا الشأن فى افتراض أساسى شبه محقق ، ومجموعة من النتائج التفسيرية المنبثقة عنه .

فالفرض المحقق يتمثل فى أنه كل ما كانت الثقافة السائدة فى أى مجتمع ، والأصول الحضارية لها أكثر مرونة وقابلية للأخذ والعطاء والتغيير فى حدود مناسبة ، كلما كانت معطياتها ونتائجها أكثر إيجابية وفائدة لاستمرار التقدم والنمو وازدهار الثقافة نفسها والعكس بالعكس صحيح ، فكلما كانت الثقافة والأصول الحضارية لها أكثر تصلبا وانغلاقا ، ورفضا لكل المتغيرات إجمالا ، كلما كانت نتائجها ومردوداتها أكثر سلبية وتعويقا لحركة التقدم والنمو ، وتهديداً لهذه الثقافة بالإنقراض .

وترتكز فاعلية هذا الفرض شبه المؤكد على مجموعة حقائق تفسيرية لكل من شطرى هـذا الفرض ، أولهـا أن مبدأ توفر المرونة والقابلية والأخذ والعطاء والتغيير . . . الخ فى مضمون العناصر الحضارية والثقافية لأى مجتمع من المجتمعات مثلا ، والذى بالرغم من أنه قد يفرز نتائج متشابهة ـ إيجابية بشكل عام ـ إلا أنه قد يرتكز جوهريا على أسس غير متشابه تماما فى كل الحالات ، بل قد تكون متناقضة إلى حد كبير ، لأن توفر المرونة والقابلية الحضارية والثقافية لأى مجتمع ، بمقاييس عالية تجاه المتغيرات يرتكز أساسا ، إما على موقف قوى جدا ، أو ضعيف جداً ، فى جوهر التكوين الكمى والكيفى لعناصر التراث الحضارى والثقافى لهذا المجتمع أو ذاك .

ففى الحالة الأولى ـ حالة القوة ـ حينما يكون الكم المتراكم لعناصر الحضارة والثقافة[1] كبيرا وذى كيفيات ومضامين عقلانية وعلمانية ولو بحد

---

(١) هناك عدة تعريفات وكثير من وجهات النظر حول مواضيع الحضارة والثقافة والمدنية وتعريف كل منها وعلاقتها بالأخر ، ونحن نستخدم هذه المصطلحات هنا وفقا لوجه نظر وتعريف محدد ، يتلخص فى أن العناصر الحضارية هى كل ما يمت إلى التاريخ من بقايا وأفكار ومعلومات ولم يعد لها وظيفة أو تأثير مباشر فى حياة الناس إلا بطريقة غير مباشرة ،=

نسبى ، فإن مثل هذا الوضع ييسر فرصة المرونه والأخذ والعطاء والتعامل مع المتغيرات الجديدة بسهولة من موقف القوة أو الند للند عل الأقل ، فلا يخشى الوضع الحضارى والثقافى للمجتمع أن تبتلعه المتغيرات الجديدة القادمة من الخارج أو النابعة من الداخل ، وتهدد كيانه وشخصيته ، بل على العكس فإنه قد يترك هو تأثيره فيها من جهة ، ويستمد منها مضامين جديده تزيد من قوته وحيويته ، ويمكن أن تشكل الحضارة والثقافة اليونانية والعربية القديمة ثم الأوربية الحديثة نموذجاً حياً لهذا النوع من التعامل فيما بينها عبر التاريخ القديم والجديد .

أما فى الحالة الثانية — حالة الضعف — فهو يحدث حينما يكون الكم الحضارى المتراكم محدودا ، والنمط الثقافى السائد غير متماسك بما يكفى لتحقيق طرف متكافىء أو موجب على الأقل فى التعامل مع المتغيرات الجارية فتكون حالة المرونه وعدم الرفض والمقاومة العقلانية ناجمة عن موقف ضعف ، وميول للاستسلام والتقمص لكل ما تأتى به المتغيرات الخارجية من عناصر ثقافية وحضارية ، وابتلاعها بغير نظام وكيفما أتفق ، والتى قد تفرض فرضاً ولاتجدى معها أيه مقاومة أو تعطى معها أى فرصة للاختيار ، مما يهدد العناصر الحضارية والثقافيه الأصلية على تواضعها بالانقراض ، ويهدد شخصية الوجود القومى للمجتمع نفسه بالأنهيار ، وبالذات حينما يكون تيار المتغيرات على جانب كبير من القوة والثقل والفاعلية .

ويمكن أن تشكل متغيرات الثقافة والمدنية الأوربية الحديثة إزاء بعض المجتمعات والجماعات البسيطة وشديدة التخلف فى أفريقيا وآسيا وأستراليا

=أماالثقافة أو العناصر الثقافية فهى مجموع المفاهيم والأدوات والمعايير المختلفة المنظمة لحياة الناس الراهنة وعلاقاتهم ببعضهم والتى قد يتحول بعضها بالتدريج إلى عناصر حضارية تاريخية حينما تفقد وظيفتها بحكم التطور ، أما المدينة فتتمثل فى تيار التجديد وعناصر الموضة من كل شىء، والتى قد يتقبل المجتمع بعضها وتتحول إلى عناصر ثقافية ذات دور بارز فى تنظيم المجتمع ، ولقد عالجنا هذا الموضوع فى بحث خاص بالتفصيل فى مطلع كتابنا : المنظور العلمى للثقافة المنشور عام ١٩٧٣ . وبصورة أكثر عمقا وتفصيلا فى كتابنا الأكثر حداثة وجدة ، وهوكتاب: المثقفون فى البلاد النامية ، بحث فى الفئات والعلاقات الطبقية ، مع دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، عالم الكتب بالقاهرة ١٩٨٠ وبالذات الفصل الأول إجمالا .

وأمريكا اللاتينية ، نموذجاً حياً لهذا النوع من التعامل غير المتكافىء منذ القرن السابع عشر وحتى اليوم ، والذى أسفر فى كثير من الحالات عن تدمير حقيقى للوجود القومى والحضارى لهذه المجتمعات تماماً ، والتى أصبحت مجرد ملحقات حضارية وثقافية مشوهة للمجتمعات الأوربية ؛ مما يعرف بالمجتمعات الأفريقية واللاتينية الناطقه بالفرنسية أو الانجليزية أو الأسبانية . . . الخ .(١)

أما الشطر الآخر من الفرض السابق الذى يشير إلى حالة التصلب والانغلاق والرفض تجاه المتغيرات وما يسفر عنها من نتائج سلبية ، فإنه هو الآخر يرتكز على موقف قوى جداً ، أو ضعيف جداً ، فنى الحالة القوية حينما يكون الكم الحضارى المتراكم على جانب كبير من الضخامة والعمق والتشعب والتعقيد ، وكذلك النمط الثقافى السائد المستمد منه والمعبر عنه ، وبحيث يكون هذا الكم الحضارى والثقافى ذا كيفيات ومضامين يغلب عليها الطابع العقائدى السلبى والمتشدد والمتعصب ، فإن من شأن مثل هذا الوضع الحضارى والثقافى هو أن يمارس تلقائياً ومن موقع القوة موقف رفض اجتماعى صلب ومتشدد إزاء كل المتغيرات الجارية ، سلبية كانت أم إيجابية ، والتى قد لا تكون هذه المتغيرات من الجدية والفاعلية فى مستوى يمكنها من فرض تأثيرها من موقف أقوى وحاسم ، يتجاوز قوة وفاعلية الطرف الآخر ، وتستطيع القارة الهندية بأكملها أن تقدم لنا أبرز نموذج لهذا الموقف الحضارى والثقافى حتى اليوم ، والتى ما تزال تمثل أعظم قلعة حضارية وثقافية واجتماعية للصمود التقليدى السالب تجاه كل المؤثرات ومتغيرات العصر داخلية كانت أم خارجية رغم كثافتها وقوتها .

أما فى حالة الموقف الضعيف المتعلق بهذا الجانب فهو أنه بالرغم من عمق وتماسك العناصر التراثية والثقافية وإصرارها على المقاومة والرفض لمفعول المتغيرات ، إلا أنها لا تشكل ظاهرة عامة فى المجتمع بقدر ما أنها تشكل

---

(١) راجع كتابنا : المثقفون فى البلاد النامية ، بحث فى الفئات والعلاقات الطبقية ، مع دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، عالم الكتب بالقاهرة ، ١٩٨٠ وبالذات الفصل الرابع بصفة عامة .

دوائر إجتماعية ضعيفة أو ما يعرف بالبقايا أو الجيوب الحضارية المغلقة ، التى صارت كذلك بحكم قوة المتغيرات التى قضت على طابعها الشمولى العام ونقلتها إلى هامش الحياة الاجتماعية ، أو بحكم تكوينها الجزئى أصلا ، والتى يمكن مشاهدتها حتى فى أكثر المجتمعات تقدماً ومدنية ، عوضاً عن المجتمعات السائرة فى طريق التقدم ، وبما أنها لا تشكل ظاهرة عامة فهى قد تعوق بعض فعاليات هذه المتغيرات إلا أنها لا تحول دون ذلك بقدر ما أنها تعمل على المحافظة على بقائها وتكييف نفسها فى نطاق هذه المتغيرات نفسها . (١) وذلك على نحو ما تفعله بعض العائلات أو الجماعات من الإصرار على عدم تعاطى المأكولات واستخدام الأدوات المصنعة بطريقة آلية فى عصر تحكمه الآلية المطلقة ، أو اعتقادهم العميق بوجود الأرواح الشريرة وقدرتها على التأثير فى حياتهم وقيامهم فى حياتهم الخاصة بممارسات وتصرفات معينة إزاء مثل هذه القضية ، رغم أنهم ينكرون على أنفسهم ذلك فيما لو سؤلوا عنه بصورة علنية فى الحياة العامة .

أساسيات التعامل مع المتغيرات التاريخية فى المجتمع اليمنى

وبعد هذا المدخل العام والمركز باختصار كبير حول ظاهرة التبادل الحضارى والثقافى ، والعوامل المتحكمة فى تحديد حجمه وكثافته ، نعود إلى صميم موضوعنا لكى نتعرف على الموقع الذى تحتله عناصر التراث الحضارى والثقافى اليمنى ، وإلى أى نمط تنتمى من الأنماط الحضارية والثقافية السابقة ؟ .

إذا ما تذكرنا بأن عناصر التراث الحضارى والثقافى للمجتمع اليمنى هى جزء لا يتجزأ من جوهر المضمون الكلى لتراث وثقافة المجتمع العربى كله الذى سبقت إليه الأشارة ، إن لم يكن بحق هو إحدى أصوله ومصادره الأساسية الأولى ، إذا ما تذكرنا كل ذلك لأصبح من السهل علينا كثيراً

---

(١) أنظر فى هذا الموضوع بالتفصيل والتحليل الكافى فى كتابنا : المنظور العلمى للثقافة دراسة خاصة عن المجتمع اليمنى من ص ٢٣ إلى ٥٣ طبعة القاهرة ١٩٧٣ م .

تحديد الموقع والمكان الذى يحتله المضمون الثقافى والحضارى للتراث اليمنى قديمه وحديثه فى الخارطة السابقة ، وهو الموقف الذى يتميز بالقوة والأصالة والعمق من جهة ، والعقلانية والمرونة فى التعامل من جهة أخرى . ويبقى علينا فقط أن نركز الحديث حول بعض السمات والمظاهر الأكثر خصوصية وتمييزاً لعناصر التراث الحضارى والثقافى لهذه المنطقة من الوطن العربى (اليمن) ومدى ما يتميز به من المرونة والقابلية للأخذ والعطى والتعامل الإيجابى مع الظروف والمتغيرات المختلفة عبر التاريخ (١) .

وعليه فإنه إذا ما أضفنا إلى الحقيقتين السابقتين اللتين سبق تحليلهما بالتفصيل فى الفصول السابقة ، حول حقيقة شيوع العقلانية وضعف الجانب الاعتقادى فى التراث اليمنى بعامة وقدرته على تطويع الظروف الطبيعية والحقائق الاجتماعية لخدمة أهداف موضوعية وإنسانية ، فإنه يمكن أن نستخرج من خلال كل ذلك وبصورة جدلية أولى البراهين الدالة على إمكانية توفر المرونة والقابلية للأخذ والعطاء والتعامل الإيجابى مع مختلف الظروف والمتغيرات الحضارية والثقافية والتاريخية من موقف حضارى قوى ومتماسك . ذلك أن مجتمع يغلب على عناصر ثقافته وتراثه بعامة الطابع العقلانى والتقلص فى الذهاب إلى الغيبيات المشوهة ، كالمجتمع اليمنى ، وكذلك حسن استخدامه وتوظيفه لمعارفه الطبيعية والاجتماعية لخدمة أغراض موضوعية وإنسانية على نحو ماسبق فى الفصول السابقة من هذا البحث ، فإن مثل هذه العناصر لابد وأن تكون من باب أولى متميزة بالمرونة وحسن التعامل مع المتغيرات التاريخية المختلفة ، وإذا كانت كل التحليلات السابقة فى الفصول السابقة تستطيع أن تقدم لنا دالة غير مباشرة على صدق وموضوعية هذه القضية ، فإن الوقائع المادية والتاريخية تستطيع بدورها أيضاً أن تقدم لنا دلائل وأسانيد حقيقية مباشرة وملموسة كذلك حول نفس القضية .

فالمجتمع اليمنى والفرد اليمنى يتمتع بمرونة وقدرة غير عادية على تغيير مواقفه ومفاهيمه وتعديلها أو استبدالها ، وهوشديد التطلع والتجربة لكل ما يسمع

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

عنه أو يعرض عليه ، ولا يحس فى نفسيته أو وجدانه ما يعيق فاعلية هذه القدرة وإشباع هذه الرغبة ، طالما وأن الظروف الواقعية قد أعطته فرصة حقيقية لممارسة ذلك ، فهو لا يتردد ولا يخضع الأمر حتى لموازين الربح والخسارة المادية . إن أول ما تتميز به مشاعر وأحاسيس الإنسان اليمنى هو سرعة الإستجابة للأحداث من مركز القوة والتفاؤل المرامى إلى تحقيق الذات مهما كانت أخطاء الحساب ، حيث لا ينظر إلى الأحداث والوقائع والمتغيرات التاريخية فى هذا المجتمع ، إلا باعتبارها مجرد فرصة نادرة للتعامل معها بأى ثمن ، مع أفتراض مسبق وهام جداً هو الحصول على المزيد من تحيق الذات وتأكيد وجودها من خلال هذا التعامل ، والخروج فى النهاية بمزيد من المكاسب والفوائد المادية والمعنوية ، حتى ولوكانت الإمكانية الحقيقية لتحقيق مثل هذا الفرض غير موجودة حقيقة ، إلا أنها تفترض فرضاً فى البداية ، حتى إذا ما تحققت النتائج التى قد تكون سلبية حدث رد الفعل المباشر والسريع بهدم ورفض كل ما يتعلق بهذا الموقف مادياً ومعنوياً وبنفس السرعة التى أستجيب له بها ، والبدء فى التطلع إلى أحداث ومواقف جديدة وهكذا (٢) . وبسبب هذه الخاصية الجوهرية فى التكوين الحضارى والنفسى للمجتمع اليمنى دخل بسببها فى كثير من أحداث التاريخ البارز بكل ثقله وخرج منها كاسباً حيناً وخاسراً وممزقاً أحياناً كثيرة ، وبالذات خلال المراحل المتأخرة من ضعف وتدهور حضارته المزدهرة ، بداء بتجربة اليأس مع اليهود والمسيحية ، وانتهاء بالأمل وبعض الحقيقة التى أتت بها الدعوة الإسلامية فى عصرها الذهبى فى صدر الإسلام ، والتى ما كادت تبدأ عملياً فى عهد عمر حتى أفرغت من مضمونها جوهرياً فى عهد عثمان وبشكل نهائى فى عهد معاوية بالنسبة لليمنيين وغير اليمنيين ، وصولا إلى أكثر المتغيرات التاريخية حداثة وأكثر قوة وتأثيراً فى العصور الحديثة

---

(١) راجع تفاصيل أكثر حول هذه النقطة فى كتابنا : التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية . دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ١٩٨٠ ، ص ٣٢٢ إلى ٣٢٨ .

القادمة من أوربا والمقرونة بحركة استعمارية واسعة النطاق ، وحتى المد الإشتراكى الأممى المعاصر ، وذلك على نحو ما سنرى فى الفقرات التالية .

تجربة اليأس مع اليهودية والنصرانية

« تجربة اليأس مع اليهودية والنصرانية » هذه هى أقرب العبارات الدالة على الإشارة إلى مرحلة من أشد مراحل التاريخ اليمنى دقه وحساسية وأكثرها اضطراباً وتمزقاً ، فقد أراد اليمنيون بعد انهيار مرافق حياتهم الاقتصادية والسياسية المزدهرة وبدأ الإحساس باليأس والضياع يتملك نفوسهم ، أرادوا أن يبحثوا عن تعويض عاجل لما فقدوه من خلال أشد المتغيرات التاريخية قربا منهم والأكثر انتشاراً وتأثيراً على مستوى منطقة الشرق القديم بأسره ، وحتى روما وجنوب روسيا فى القرن الخامس والسادس الميلادى ، وهو صراع اليهودية فى فلسطين وشمال الجزيرة العربية ، والنصرانية فى روما وبقية بلاد الشام ، والوثنية فى فارس ، حيث كانت هذه المتغيرات السياسية الأيديولوجية والعقائدية تعيش مع بعضها صراعات دينية وأيديولوجية وقومية شديدة التعقيد ، منذ بداية القرن الميلادى الأول وظهور المسيح وصلبه . وذلك بعد أن ظل اليمنيون فى غناً عن الدخول فى هذا الصراع العقائدى قبل ظهور المسيحية وبعد ظهورها بما يزيد على ثلاثة قرون كاملة أو يتأثروا بها لأسباب ذاتية وموضوعية وحضارية سبق الإشارة لبعضها فى الفصل السابق وسنتناولها هنا بتفصيل أكثر بعد قليل .

ولكن اليمنيين كانوا أشبه بالمستجير من الرمضاء بالنار كما يقال ، فأرادوا أن يستعيضوا عن العقل الذى افتقدوه ويبحثوا عنه فى أسطورة « السامرى وموسى » والقوة والخير الكثير الذى جفت موارده من بين أيديهم بالانتظار تحت « نخلة السيدة العذراء » . وإذا كان ما يؤخذ على اليمنيين هو أنهم قد أخطاءوا فى ذلك فعذرهم أنهم لم يجدوا فى محنتهم ما يفعلونه سواه ، إنها تجربة اليأس التى ربما أنهم كانوا يدركون نتيجتها مقدما . ومع ذلك فإنه بالرغم من كل ما لحق بالبقية الباقية من مقومات حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خراب ودمار وفقدان للحرية والسيادة الوطنية فى كثير من الأحيان نتيجة الدخول فى هذه اللعبة بطريقة

مباشرة وغير مباشرة ، إلا أن الشيء الوحيد الذى احتفظوا به هو أنهم لم يستسلموا وجدانياً وحضارياً لتأثير هذه المتغيرات الحادة التى اقتحمت عليهم عقر دارهم أكثر من مرة ، وظلت بالنسبة لهم عبارة عن موجات سياسية وعسكرية لا أكثر ولا أقل ، فإذا كانوا قد تجرعوا ويلاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية فإنهم قد نجو مما هو أسواء فى مضامينها العقائدية والميتافيزيقية المقرون بحمى التسلط السياسى والعنصرى للجماعات الغازية تحت ستار الدين من يهودية أو نصرانية .

ذلك أنه من الأمور الملفتة للنظر وذات الدلالة أن الديانة اليهودية التى انتشرت فى شمال الجزيرة وحتى نجد والحجاز ، وهى من أقدم الديانات السماوية الرسمية والتى رافقت معظم الحضارات القديمة ، لم يتأثر بها اليمنيون أيام ازدهارهم الحضارى قط ، ولم يتم ذلك إلا عند الضعف والتدهور الحضارى فى مراحل لاحقة ، وبعد ظهور المسيحية نفسها ، فلم يستدل على أى شيء ليثبت واقعياً قبل عهد « ذونواس » الذى شغل الربع الأول من القرن السادس الميلادى بأن الديانة اليهودية قد عمل بها كديانة رسمية للدولة والمجتمع اليمنى القديم ، بالرغم من أن هذه الديانة الضاربة فى القدم كانت هى أقرب إليهم وإلى علمهم ومعارفهم أكثر من غيرهم ، وما أورده الدكتور جواد على من أن دخول اليهودية إلى اليمن مرده إلى اتصال اليمن من عهد قديم بطرق القوافل التجارية البحرية والبرية ببلاد الشام ، وأن قدماء الحميريين كانوا فى بادىء أمرهم على دين يهود ، دخلوا فيه أيام ملكة (سبأ) المعروفة بقصتها الأسطورية مع سليمان التى يفترض « وندل فليس » أن تاريخ عهدها يرجع إلى ٩٥٠ قبل الميلاد[١]، فإن مثل هذه الأمور هى أمور ماتزال افتراضية لا نجد لها أى سند حقيقى حتى الآن ، حتى ملكة سبأ هذه نفسها (بلقيس) لم يعثر بعد على أى مستند من النصوص القديمة تؤكد شخصيتها بدقة ، ما عدا ما تشير إليه القصص والأساطير والكتب المقدسة ، كما يذهب البعض إلى أن بلقيس هذه شخصية أسطورية أكثر من

---

(١) راجع محمود كامل المحامى : اليمن شماله وجنوبه تاريخه وعلاقاته الدولية ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٨ ، ص ٦٤ ، وأنظر أيضاً جواد على : المفصل ج ٣ ص ١٧٠ .

كونها واقعية ، وأنها قد وضعت ضمن ما وضع من « الإسرائيليات[١] » .

كما أنه قد ثبت أن الأقليات المحدوده من اليهود التى كانت تتواجد فى اليمن من وقت لآخر منذ زمن مبكر كانت عبارة عن أقليات نازحة أصلا بحثاً عن مستقر ومأمن من البطش الرومانى قبل وبعد تدمير القدس فى أواخر القرن الأول الميلادى[٢].

كما أن الديانة المسيحية لم يسمع عنها فى اليمن وتلاحظ كظاهرة سياسية واجتماعية عامة إلا فى فترات الضعف والتدهور الحضارى أيضا ، وبعد أكثر من خمسة قرون من ظهورها ، والتى نشرها الأحباش أو حاولوا نشرها على الأصح ، وتقبلها اليمنيون وتعاملوا معها على النطاق السياسى فقط لفترة وفى ظروف سياسية واجتماعية معينة .

فبعد أن فقد المجتمع اليمنى عهد حضارته الذهبية الزاهرة التى كان يستمد منها ذاتياً فروضه النظرية وممارساته التطبيقية بصورة مباشرة فى بناء نفسه وتقدمه من ناحية ، وتعامله مع الغير من ناحية أخرى ، بدأ يبحث عن تعويض غير مباشر من خلال التحمس للأحداث والمتغيرات التاريخية من حوله ، والتفتيش عن نفسه وذاته الممزقة وشبه الضائعة من خلالها بلا كلل ولا توقف حتى اليوم ، فلقد تحمس اليمنيون بعد انهيار حضارتهم مباشرة قبيل الميلاد وبعد الميلاد لكثير من المبادىء والأيديولوجيات السياسية والدينية من يهودية ومسيحية ، والتى تعتبر من أهم وأبرز أحداث التاريخ السياسى والاجتماعى لمعظم المجتمعات الإنسانية المعاصرة ، لا خوفاً أو حباً لذات المبادىء والأيديولوجيات نفسها ، بقدر ما هو بحثاً عن أنفسهم وذاتيتهم المفقودة من خلالها .

فقد اقتربوا من اليهودية سياسياً وأيديولوجياً وليس عقائدياً ، ودان بها بعض ملوكهم وتعصبوا لها وقاتلوا عنها بحد السيف ، وقصة الملك « ذونواس » اليمنى اليهودى فى صراعه مع الأطماع الأجنبية المتسترة بثوب المسيحية ، ليست بخافية فى التاريخ ، وبنفس السرعة التى اعتنقت بها اليهودية كمبدأ سياسى واجتماعى عام فى المجتمع تم التخلى عنها بعد فترة قصيرة من عمر الزمن ، لأن اليمنيين لم يستطيعوا أن يجدوا فيها التعويض والبديل الكافى عما فقدوه من مفاهيم ومضامين حضارية وعقلية من نوع آخر .

---

(١) راجع شوقى عبد الحكيم : أساطير وفلكلور العالم العربى (مرجع سابق) .

(٢) محمود كامل المحامى : اليمن تاريخه وعلاقاته الدولية ، ص ١٢٣ ، (مرجع سابق) .

كما تحمسوا للمسيحية بعد ذلك بنفس الطريقة ولنفس الأسباب ووصلوا فى النهاية إلى نفس النتائج ، ولقد كانت قصة الملك سيف بن ذى يزن الذى حاول أن يوطد أسس مبادىء أيديولوجية وسياسية علمانية وطنية متحررة من نوع جديد على أنقاض بقايا اليهودية والمسيحية اللتين فشلتا فى القضاء على الغربة النفسية والتمزق والضياع الوجدانى فى حياة المجتمع اليمنى هى أعظم دليل على ذلك ، بل لقد كان تجريب اليمنيون لليهودية والمسيحية فى حل مشاكلهم السياسية والاجتماعية والحضارية بصفة عامة كان من أهم أسباب التمزق والخلافات والفتن والصراع بين اليمنيين أنفسهم من الأقيال والأذواء الأقطاعيين الذى بداء كل منهم يستقل بجزء من البلاد ويتصرف به كيف شاء ، والذى كان قد بلغ ذروته فى تلك المرحلة بالذات وسهل للغزو الأجنبى الحبشى والفارسى دخول البلاد ، ولكن الزمن لم يمهل سيف كثيراً ولم يتح لأحد من بعده فرصة الاستمرار والمحاولة ،لوقوع البلاد تحت السيطرة السياسية المباشرة للفرس وإنتعاش ممالك الأذواء والأقصاع من جديد بعد مقتل سيف بن ذى يزن الذين أتوا كمساعدين وتحولوا بعد مقتل سيف غيلة إلى مستعمرين جدد قبل مايقرب من خمسة وعشرين عاماً من ظهور الدعوة الاسلامية (١) .

ومن أكثر الأمور دلالة ووضوحاً على أن اليمنيين قد تعاملوا مع اليهودية والمسيحية فى فترات ضعفهم تعاملا سياسياً واجتماعياً وليس تعاملا عقائديا ودينيا على الاطلاق هو المقياس الزمنى نفسه الذى لايتعدى المائة عام منذ أن بدأت اليهودية والمسيحية تبرز على سطح الأحداث السياسية والاجتماعية فى اليمن حتى انتهت تماما ، بداء بذى نواس اليمنى اليهودى ، مرورا بأبرهة المسيحى الحبشى ، وحتى ذويزن الذى لم يكن لايهوديا ولا مسيحيا ،بل تعاملوا معها كموجات سياسية فقط بالقياس الزمنى لعمر التاريخ والزمن المطلوب لظهور حضارة أو ديانة كبيرة كاليهودية أو المسيحية أو فى أى مجتمع ، ثم اختفائها منه ، والذى يحتاج حقيقة إلى آلاف من السنين ، بينما الأمر قد اختلف جذرياً بالنسبة لليمن وعلاقتها باليهودية والمسيحية ،

---

(١) راجع تاريخ اليمن السياسى لحداد ص ١٠٧ إلى ١١٨ الطبعة الثالثه ١٩٧٦ عالم الكتب القاهرة .

فإذا علمنا بأن الديانة اليهودية لم يستدل عليها فى حياة اليمنيين وحضارتهم كظاهرة سياسية واجتماعية وحضارية قبل عهد الملك ذونواس الحميرى الذى يقدر « هومل » فترة عهده بين عامى ٥١٥ إلى ٥٣٥ ميلادية ، وأن أول ظهور للمسيحية فى اليمن حسب رأى الدكتور جواد على هو فى أيام قيصر أنسطاس عام ٥١٨ ميلادية . وبلغت ذروة انتشارها وعموميتها على أيدى الأحباش الذين استوى لهم الأمر فى اليمن نهائيا على يد أبرهة الأشرم من عام ٥٣١ أو ٥٣٥ وحتى عام ٥٧٠ م وهو عام غزوه الفاشل لمكة ومات بعدها بسنوات قليلة وخلفه ابنه يكسوم لمدة تسعة عشر عاما تضاف إلى مدة أبيه لتصبح المدة الحقيقية لحكم الأحباش وأنتشار المسيحية هى من عام ٥١٨ — ٥٨٩ ميلادية حيث كانت حركة سيف بن ذى يزن قد بدأت والتى تقلصت بانتصارها المسيحية نفسها ، وبدأ يسود اتجاه سياسى علمانى وثنى إن جاز التعبير أكثر منه دينى فى عهد سيف ، ثم عهد السلطة الفارسية من بعده ، والتى امتدت هذه الفترة من عام ٦٠٠ ميلادية تقريبا حتى أسلم باذان عام ٦٢٨ بعد أن كان اليمنيون قد تخلوا عن كل من أصول اليهودية والمسيحية بعد طرد الأحباش ، واعتنقوا الدين الإسلامى . فإذا ماحققنا كل ذلك لأدركنا بدقة بأن الفترة الزمنية التى بدأ فيها اليمنيون اعتناق اليهودية والمسيحية—إذا جاز هذا التعبير — وحتى استأصالها من حياتهم السياسية والدينية تماما لاتتعدى مائة سنةمن عام ٥٠٠ حتى ٦٠٠ من الميلاد على أبلغ تقدير ،وذلك هو المبرر الذى أجزنا لأنفسنا من خلاله استخدام مصطلح دخول اليمنيين فى اليهودية والمسيحية بسرعة « البرق » وخروجهم منها بسرعة « الضوء » وكأنها بذلك موجات سياسية فقط ولم تجد لها أى طريق حضارى عقائدى حقيقى فى نفوس اليمنيين (١).

الحركة الزمنية بين تخاذل الاقطاع المحلى وأطماع الغزو الفارسى

أو أكد ما سبق لى وأن أشرت إليه فى أكثر من موضع من هذا البحث من أن وجود أعراض النظام الاقطاعى وانتعاش الجيوب العشائرية والقبلية فى المجتمع اليمنى هو دائماً أمر مشروط ومتلازم جدلياً بأنتشار حالة الضعف والأنهيار السياسى والاقتصادى للدول المركزية الوطنية القويه وتفكك الوحدة السياسيه ، والعكس بالعكس صحيح تماماً ، وذلك إستناداً إلى

(١) راجع د . فاروق عثمان أباظه : مقال فى مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، عدد اكتوبر ١٩٧٨ص ٨٨ .

مجمل الحقائق الماديه والتاريخية السابق تحليلها بإفاضة فى الفصول السابقة .

ولقد كانت الحركة الزنية هى أولى ردود الفعل القومية والوطنية المبكرة بعد حركة ذو نواس فى مواجهة حالة الانهيار والضعف السياسى والاقتصادى وتمزق الوحدة الوطنية بعد سقوط الدولة الحميرية منذالقرن الثالث الميلادى تقريباً ، ووقوع البلاد تحت طائلة الاحتلال الحبشى نتيجة لذلك ، وفشل كل إمارات وممالك الأقيال والأذواء والمثامنة(١) الاقطاعية والعشائرية التى أفرزتها حالة الضعف تلك فى مواجهة هذا الاحتلال ، بل لقد مال بعض هـــذه العناصر إلى التعايش معه خصوصاً إذا ما عرفنا بأن ذو يزن لم يكن من هؤلاء المثامنة ولا من الأذواء الكبار ، بل هو من إسرة عادية تسكن منطقة السر ولحج ومرخة وأحور(٢) .

فإذا مانظرنا إلى الحركه الزنية من خلال هذه الرؤيه الاجتماعية والطبقية الواضحة فإننا سوف نقوى بسهولة على قراءة وتفسير هذه الحركة تفسيراً جدلياً صحيحاً . فلقد كان تخاذل هذه الطبقة الاقطاعية الجديدة من الأقيال والأذواء والمثامنة تجاه الحركة الزنية والذى لا نشكك أنه قد حدث قد ارتكز على مجموعة من الحقائق السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، يأتى فى مقدمتها الأثر المعنوى للفشل الذريع الذى لقيته المقاومة المجزءة والمشتتة لهذه العناصر تجاه الغزو منذ البداية ، وما خلفه هذا الفشل فى أذهانهم من أن هذا الغزو هو قوة لاتقهر ، ومال البعض إلى التعايش معه . وثانيهما أنهم ما كانوا ليستطيعوا أو يطيقوا بحكم طبيعتهم إستيعاب شعارات وطموحات هذه

---

(١) تؤكد معظم الدلالات التاريخية بأن سياسة الدولة الحميرية كانت ترتكز على مجلس أعلا مكون من ثمانية أشخاص يشكلون على ما يبدوا التمثيل النيابى الأعلا للمناطق المختلفة ، والذين لايصلح ملك حمير – كما يقول الدكتور يوسف محمد عبد الله – إلابهم ، وإذا اجتمعوا على عزل ملك عزلوه (راجع ص ٥٣ من مجلة اليمن الجديد عدد مارس ١٩٨٠) وقد شكل هؤلاء الثمانية بعد سقوط الدولة نواة الطبقة الاقطاعية والعشائرية الجديدة والذين عرفوا فيما بعد بالمثامنة ، شأنهم شأن غيرهم من الاقيال والاذواء الآخرين ، والذين حاول العديد منهم مقاومة الحملة الحبشية بجهود مشتتة وفشلوا فى ذلك فشلا ذريعاً .

(٢) راجع دكتور عبد اللطيف الحديثى : أهل اليمن فى صدر الاسلام ، ص ٨١ إلى ٨٣ .

الحركة الوطنية فى ضرورة شن الحرب ضد الغزاة حتى النصر وإعادة بناء الدولة الوطنية المركزية القوية ، والتى إن لم تكن مثل هذه الشعارات والأهداف تتعارض حقيقة مع مصالحهم ، فإنهم قد لايكونوا قادرين على إستيعابها أو تصور إمكانية تحقيقها بحكم طبيعتهم ونمط تفكيرهم الاقطاعى والعشائرى أيضاً . وثالث هذه الحقائق هى أن الغزو الحبشى قد دأب على رعاية وحماية مصالح هـذه الطبقة وعدم الأضرار بها على الأقل ، الأمر الذى جعل غالبية أفرادها وقادتها غير متحمسين كثيراً لهذه الحركة إذا لم يكن بعضهم قد دفع إلى مقاومتها فعلا .

إن هذه الحقائق التى بالرغم من قلة الأسانيد التاريخية المكتوبة عنها فى الكتابات التقليدية إلا أنها راسخة الحجة منطقياً وجدلياً إلى حد كبير ، بل إنها تشكل المقياس العلمى والمنطقى الصحيح الذى يحكم دائماً كل تفكير ومواقف الطبقاب الاقطاعية فى المجتمعات المختلفة بصفة عامة إزاء المتغيرات القومية والوطنية فى كل مجتمع والطبقة الاقطاعية فى المجتمع اليمنى على وجه الخصوص قديماً وحديثاً على السواء .

ولقد كان لجوء سيف بن ذى يزن إلى حمل هموم شعبه المتوقدة حماساً وثورة ضد الغزاه والخروج بها إلى الخارج هو إجراء سياسى مناسب فى مثل تلك الظروف ومرتكز على مجموعة حقائق أخرى سياسية واجتماعية أيضاً وهى :

أولا : إكساب الحركة الوطنية ضد الاحتلال الحبشى طابعاً قومياً عربياً ، من خلال طرح هذه القضية على كل القبائل والممالك العربية فى شمال الجزيرة وأطرافها ؛ خصوصاً تلك الممالك القوية والمتحضرة لأولائك الذين تربطهم باليمن وأهلها صلة رحم وقربى دموية من الغساسنة والمناذرة فى الحيرة وتدمر ، وطلب العون منهم والتشاور معهم قبل الذهاب إلى فارس ، الذى كان مجرد خطوة سياسية منبثقة عن ذلك التشاور . فذو يزن لم يكن فى رحلته ليهدف إلى طلب العون — كما يقول الدكتور فارق عثمان إباظه — من الروم أو من الفرس ، وإنما أراده من أبناء وطنه المهاجرين

اليمنيين الذين كانوا فى ذلك الحين قد كونوا إمارتين عربيتين على حدود الدولتين الكبيرتين ، وكان ارتباطهم بهاتين الدولتين وراء رحلة سيف إلى عاصمتى « بيزنطة » و « فارس »[١] .

وثانى هذه الأهداف والحقائق هو البحث عن إيجاد مايمكن تسميته بلغة السياسة المعاصرة بالتوازن الدولى تجاه الأحداث فى اليمن ، والذى كان هذا التوزن يبدو مختلا إلى حد كبير فى غير صالح الحركة اليزنية من خلال الغزو الحبشى الذى تقف وراءه بيزنطة والعالم المسيحى بأسره ، وذلك من خلال استنفار فارس الوثنية والند التقليدى لبيزنطة المسيحية .

وثالث هذه الحقائق والأهداف أن ذو يزن كان يدرك جيداً ما سيكون لإقامة مثل هذا التوازن من أثر معنوى قوى على نفسية اليمنيين فى مقاومتهم للغزو ، خصوصاً أفراد تلك الطبقة الاقطاعية والعشائرية من الأذواء والمثامنة الذين ملاء نفوسهم اليأس واستهوتهم المصالح الإقليمية والشخصية الضيقة كما سبقت الإشاره .

ولقد حققت هـذه الرحلة كل الأهداف السياسية التى استهدفت منها حينما عاد ذو يزن يحمل إلى سواد شعبه روحاً معنوية جديدة فى مواجهة الاحتلال ، والتى تمثلت أولا : فى إستثارة كل القبائل والممالك العربية فى طول الجزيرة وعرضها ولفت إنتباههم إلى هـذا الخطر الذى يهدد الجزيرة وعروبتها . وثانياً : فى الحصول على الدعم السياسى والمعنوى من فارس التى كانت بدورها حريصة على إنتهاز مثل هذه الفرص لدس أنفها فى اليمن ، وتجسد ذلك من خلال مجموعة الستمئاة جندى من الأبناء من الفرس الذين أحضرهم سيف معه[٢] والذين كان لوصولهم تأثير معنوى فعال فى تحطيم معنويات الأحباش من جهة ورفع معنويات اليمنيين فى

---

(١) د . فاروق عثمان أمين أباظه : التدخل الأجنبى فى اليمن فى نهاية عهد حضارته القديمة وموقف الشعب اليمنى إزاءه ، مقال فى مجلة . دراسات الخليج والجزيرة العربية ، عدد اكتوبر ١٩٧٨ ، ص ٨٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٦ .

خوض المعركة الحاسمة ضد الأحباش أنفسهم من جهة أخرى . ولم يكن جيش تحرير فارسى لليمن من الأحباش كما درج على ذلك معظم الرواة والأخباريين إلى حد إتهام ذو يزن بأنه قد أزال محتل قديم باحضار محتل جديد ، ومما يؤكد فساد مثل هذه الروايات هو ماتطفح به وجهات النظر المختلفة والمتناقضة لهذه الروايات عن هذه الرحلة والتى هى أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق التاريخية جملة وتفصيلا .

ونحن فى هذه المسألة نتفق إلى حد كبير مع مايذهب إليه الدكتور فاروق عثمان أباظه فى كتاباته وهو دارس تاريخى معاصر ومتخصص فى شئون التاريخ اليمنى وفيما أشار إليه فى مقال تاريخى قيم حول هذه المسألة بالذات المتعلقة برحلة سيف بن ذى يزن فى مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية بعنوان التدخل الأجنبى فى اليمن فى نهاية عهد حضارته القديمة وموقف الشعب اليمنى إزاءه ، حيث يذكر فى هذا الشأن ما نصه : إن الكثيرون يقعون فى خطأ ، فأحش عندما يتصورون أن الفرس هم الذين قاموا وحدهم بطرد الأحباش من اليمن ، إذ أن المنطق لايقبل إطلاقاً أن يتمكن عدد محدود من رجال الفرس لايتجاوز ستمائة مقاتل من القيام بتلك المهمة بأى حال من الأحوال ، وإن من يعتقدون فى ذلك يتجاهلون الدور الكبير الذى لعبه رجال القبائل اليمنية الثائرة فى طرد الأحباش من بلادهم . . وكل مايمكن أن تكون قد فعلته تلك القوة الفارسية المحدودة هى أنها أشعرت الأحباش بأن القبائل اليمنية سوف تتلقا دعماً من الامبراطورية الفارسية المنافسة لبيزنطة والمعادية بطبيعة الحال للوجود الحبشى فى اليمن . . ومن ناحية أخرى كان هذا الدعم الفارسى من شأنه أن شجع القبائل اليمنية المتحفظة للاشتراك مع القبائل الثائرة التى توقعت أن ترجح كفتها على كفة الأحباش إذا ماحملوا عليهم جميعاً حملة شاملة وهو ماحدث بالفعل[١] .

والشىء الذى جعل معظم الرواة والمحدثون ينحون مثل تلك المناحى

---

(١) د . فاروق عثمان أباظه : مقال فى مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية عدد اكتوبر ٩٩٧٨ ، ص ٨٦ .

الخاطئة فى تقييم علاقة الحركة اليزنية بفارس هو عدم إدراكهم للنوايا الاستعمارية الفارسية غير المباشرة تجاه هذه الحركة وتجاه اليمن بصفة عامة فى تلك المرحلة ، والذى ارتكز موقفها فى هذا الشأن على نقطتين أساسيتين ، الأولى مباشرة وهى المتمثلة فى الاستجابة لتقديم العون السياسى والمعنوى للحركة إنطلاقاً من مصلحة مشتركة لكلا الطرفين ، وهو الأمر المعلن ، أما النقطة الثانية غير المعلنة والتى تخص إيوان كسرى وسياسته الخاصة وحده والتى يغفلها الرواة والمحللون والأخباريون فهى الاستعداد للسيطرة على اليمن والحلول محل الأحباش إذا مانجحت الحركة فى طردهم وإذا ماواتت الفرصة لذلك ولو على المدى البعيد وبالطرق السياسية الأقل تكلفة وإثارة ، وذلك من خلال التواجد المباشر لأقلية الفرس فى اليمن الممثلة فى مجموعة الجنود الذين حضروا مع سيف بن ذى يزن والذين تحولوا إلى سياسيين بمرور الوقت إن لم يكونوا هم حقيقة عناصر سياسية أصلا وبالفعل، عملت منذ البداية لذلك الهدف غير المباشر بطريقة مباشرة وغير مباشرة،ولم يكونوا مجرد مساجين جانحين محكوم عليهم من أمبراطور فارس كما ترى معظم روايات الأخباريين الأقرب إلى الأساطير .

ولقد واتتهم الفرصة الذهبية لتحقيق ذلك الهدف بعد انتصار الحركة وخروج الأحباش من اليمن حينما بداء ذو يزن فى العمل على استعادة أسس ومقومات الوحدة الوطنية وبناء الدولة المركزية ودخل بسبب ذلك فى صراع مرير وعنيف مع رؤس الطبقة الاقطاعية من الأذواء والمثامنه الذين برزت هذه السياسة باعتبارها تهديداً حقيقيا لمصالحهم المرتبطة بأستمرار حالة الضعف والتمزق السياسى والوطنى القائم(١) ، حيث تواطئت بعض هذه العناصر مع الفرس الذين جمعتهم مصلحة مشتركة فى التخلص من سيف بن ذى يزن والقضى على توجهه القومى والوطنى لينفرد الفرس بالسلطة الشرعية والتصرف بالسياسة الخارجية والسيطرة على حركة التجارة وممراتها الدولية فى البحر الأحمر وهو الهدف الأساسى لفارس،ويضل ملوك الطوائف من الأذواء الاقطاعيين والعشائريين على ماهم عليه كل واحد منهم شبه مستقل بمنطقة من

---

(١) أهل اليمن فى صدر الاسلام ، ص ٨٤ (مرجع سابق) .

مناطق البلاد يتصرف بها وبأهلها كيف يشاء تحت حماية ورعاية تاج كسرى أنو شران . وماأشبه اليوم بالبارحة بالنسبة لما كان يحدث فى الأمس القريب لممالك وإمارات السلاطين والأمراء الاقطاعيين والعملا فى جنوب الوطن تحت رعاية وحماية المندوب السامى فى عدن والتاج البريطانى فيما وراء البحر. وقد نجحت المؤامرة ضد الحركة اليزنية بعد انتصارها إنطلاقا من هذه الرؤية الاجتماعية والطبقية الواضحة للأحداث التاريخية ،إلى أن استعادة الحركة تنظيم نفسها من جديد ضد المحتل الجديد بعد ذلك بقيادة عبهلة بن كعب العنسى ضد الوجود الفارسى على نحو ما سنرى فى الفقرات التالية من هذا البحث .

ومن المفارقات العجيبة أن أكبر شخصية ارستقراطية وإقطاعية يمنية اتهمت بالعمالة للفرس والتواطىء معهم فى اغتيال سيف بن ذى يزن بعد انتصاره هو نفس الشخص الذى تواطىء معهم فى اغتيال عبهلة بن كعب العنسى بعد انتصاره أيضا ،وهو فروة بن مسيك المرادى الذى يبدو أنه كان بسبب ذلك ذا شأن عظيم بالنسبة للفرس وكان يتمتع برعاية خاصة مادية ومعنوية ، ومن ذلك مثلا أن حيين رئيسيين من أحياء مدينة صنعاء قد سمى أحدهما بأسمه « حى فروة » والثانى بأسم والده « حى مسيك » والذين مايزالين كذلك حتى يومنا هذا .

فتاريخ عناصر الطبقة الأقطاعية والعشائرية فى المجتمع اليمنى قديما وحديثا هو تاريخ ملطخ بالمساوء والخيانات الوطنية والوقوف ضد ارادة الغالبية الساحقة فى المجتمع شأنهم فى ذلك شأن أية عناصر اقطاعية فى أى مجتمع آخر .

الدعوة الاسلامية من الامل إلى اليأس

ومن المتغيرات التاريخية الأكثر فاعلية وحسما فى حياة المجتمع اليمنى وتاريخه ، وتاريخ منطقة الشرق بأسرها هى الدعوة الاسلامية التى إستجاب لهـا اليمنيون بلا قيـد أو شرط وآووها ونصروها حتى النهاية ، إنطلاقا من نفس المبـدأ ونفس الظروف التى تعاملوا من خلالهـا مع اليهودية والمسيحية ، مع بعض الفوارق الجوهرية فى طبيعة الدعوة الإسلاميـة باعتبارها دعوة أخوة ورابطة وطنية وقومية ولم تكن غزوا بالنسبة لليمن

بالذات ، أما من حيث النتائج فهى وإن بدت فى بعض الفترات القصيرة إيجابية إلا أنها قد أخفقت فى أن تحقق لليمنيين ما كانوا يقصدونه منها وما أستجابوا لها من أجله ،شأنهم شأن غيرهم فى العالم العربى والإسلامى حتى اليوم.

ذلك أن إقبال اليمنيين على الاستجابة للدعوة الإسلامية ومناصرتها والدفاع عنها ونشر لوائها فى الوقت الذى جحدتها قريش ، وناصبت محمداً وأتباعه العداء والكراهية لم يكن من قبيل المصادفات أونزعة الطيبة والعاطفة التى جرى الكثيرون على تفسير هذا الموقف من خلالها ، بقدر ما أنه كان يكمن وراء هذا الموقف الفريد لليمنيين من بين كل الذين عرضت عليهم الدعوة بالسلم فرفضوها وحاربوها داخل الجزيرة وخارجها ، أمران أساسيان الأول : أن المضمون الفكرى والاجتماعى الأنسانى للدعوة وما دعى إليه محمد من القضاء على الوثنيات المتعددة والعادات الخرافية والوحشية السيئة التى كانت سائدة فى المجتمع المكى وما حوله من وأد البنات والمراباة والانصاب والإزلام وغيرها ، وإيجاد مجتمع مركزى قوى موحد ماديا وروحيا يسوده نوع من المساواة والأخوة والعدل كانت كل هذه المفاهيم تنسجم كلية مع جوهر الأصول العقلانية والوجدانية للمجتمع اليمنى ، ولم يجدوا بينهم وبينها أى عائق مادى أو معنوى ، بل وجدوا فيها مفاهيم وأصول اجتماعية لامكانية إقامة مجتمع عربى جديد قوى وموحد ، الأمر الذى أحيا فى نفوسهم ما كان قد فقد منهم بالفعل وبعث أمل إمكانية خلقه من جديد لأن أفكار التوحيد — كما يقول الدكتور الحديثى — كانت منتشرة فى اليمن منذ مدة قديمة ، لذلك لم تصتدم معتقداتهم بالدين الجديد (١) .

أما الأمر الثانى : فهو أن اليمنيين كان قد فرض عليهم من حالة الضعف والتمزق وصراع الأعداء والغزاه من الأحباش والفرس ،الذين كان ما يزال حاكمهم « باذان » الفارسى يحكم يومها فى صنعاء ، بعد أغتيال سيف بن ذى يزن الذى وصل بعض الفرس لنصرته ومعاونته ضد الأحباش فاغتالوه بعد انتصاره وحكموا البلاد حكما أجنبيا لبعض الوقت ، حيث وجد اليمنيون فى هذه الدعوة منطلقا وفرصة لا تعوض ، من أجل التغلب على ما يعانونه ،

---

(١) د نزار عبد اللطيف الحديثى : أهل اليمن فى صدر الإسلام ، ص ١٠٠ .

والخروج من ضائقتهم السياسية والاجتماعية ، بالتنسيق والوحدة مع إخوانهم وبنى جلدتهم عرب الشمال ، فى ظل دعوة وأيديولوجية جديدة ، جديرة بتوحيدهم واستعادة مجدهم والتغلب على كل مشاكلهم الداخلية والخارجية(١). حيث ما كادت أنباء هذه الدعوة تسمع فى اليمن حتى لفظت المسيحية آخر أنفاسها ، وذهب اليمنيون توا شعوبا وقبائل لاعتناق هذا المعتقد الدينى والسياسى والاجتماعى الجديد ، وجلبه إلى موطنهم ، لا حبا أو خوفا من هذه الدعوة لذاتها واقتناعا بها ، بقدر ما أن العوامل والظروف التى ظلت تكرر نفسها تجاه مد الدعوة اليهودية والمسيحية بالنسبة لليمنيين تعيد نفسها هذه المرة بصورة أكثر قوة وحدة وفى ظل ظروف سياسية واجتماعية ونفسيه أكثر مواتاة ، لأن وضع اليمن السياسى والاجتماعى والنفسى كان قد وصل فى هذه المرحلة إلى حالة من التمزق والضياع والغربة لم يسبق لها مثيل ، خصوصا بعد اغتيال سيف بن ذى يزن القائد المنقذ من الإحتلال الحبشى الذى عانا منه اليمنيون زمنا طويلا ووجود محتل أجنبى جديد على قمة السلطة السياسية .

حيث وجد اليمنيون - كما سبقت الاشارة - فى هذه الدعوة منطلقا وفرصة لاتعوض من أجل التغلب على ما يعانونه من ضياع والخروج من ضائقتهم السياسية والاجتماعية والنفسية ، بالتنسيق والوحدة مع أخوانهم وبنى جلدتهم فى الشمال ، وفى ظل دعوة وأيديولوجية جديدة وجديرة حقا بتوحيدهم واستعادة مجدهم ، والتغلب على كل مشاكلهم الداخلية والخارجية(٢) . فكان لهم ما أرادوا ولو لفترة محدودة من الزمن لاتتجاوز عهد صدر الإسلام ، حيث تغير مجرى الأحداث بعد ذلك مع ظهور الإمبراطورية الأموية ، ليس بالنسبة لليمنيين الذين عاشت الدعوة الإسلامية

---

(١) راجع محمد بن يحيى الحدا : تاريخ اليمن السياسى الطبعة الثالثة عالم الكتب القاهرة ١٩٧٦ م . ص ١٢١

(٢) المرجع السابق ص ١٢١ .

فى حماهم وحملت على أكتافهم وأسنة رماحهم إلى مختلف بقاع الأرض فحسب ، بل وبالنسبة لجوهر الدعوة الإسلامية ومبادئها الأساسية الراديكالية النقية أيضا .

ولقد كانت ثورة اليمنيين بقيادة عبهلة العنسى هى أول رد فعل سلبى تجاه بعض المتغيرات السلبية لسياسة الخلافة فى المدينة ، التى خيبت بعض آمالهم فى الطموح إلى تأكيد استقلالهم الوطنى من بقايا حكم الاحفاد الفارسيين ، أو حكم « الابناء » كما عرف فى تاريخ الخلافة ، حيث ذهبت سياسة الخلافة فى المدينة إلى تثبيتهم وتوطيد سلطتهم وإعطائها صبغة شرعية جديدة باسم الإسلام وفى ظل مبادئه ، فإذا كانت قد وجهت أول دعوة من الرسول صلى الله عليه وسلم بواسطة المهاجر « أمية المخزومى » بحرص شديد إلى قيل اليمن الحارث بن عبد كلال الحميرى قبل غيره ، فلبى الحارث الدعوة ومعه قوم كثير ، فقد كان أول حاكم يقره الرسول على اليمن بعد أن استكمل إسلامه فى وقت وجيز هو « باذان بن التيجان » نفسه الذى كان يحكم بإسم فارس ،وعين من بعده على مخلاف صنعاء إبنه شهر بن باذان، بعد تقسيم اليمن إلى ثلاثة مخاليف، والذى قتله فيما بعد عبهلة بن كعب العنسى الملقب بذو الخمار ،واستولى على صنعاء وحضرموت وغيرها[1] . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن اليمنيين لاحظوا بأن خراج بلادهم كله من الزكوات وغيرها تنقل بالكامل إلى المدينة ولم يبق منه شىء لا لفقراء اليمن كما تقضى بذلك مبادىء الإسلام ولا لمنافعها العامة(٢) والذى كان هذا الأمر وما قبله هو من أهم دوافع الإنتفاضة الوطنية لعبهلة العنسى وغيره من اقيال اليمن الذين ذهبوا طوعا إلى المدينة بحماس للدخول فى الدعوة ومناصرتها من مفهوم ومنطلق سياسى وتاريخى معين ، فعادوا بعد حين ليعارضوها ويعترضوا على تصرفاتها بنفس السرعة ونفس الحماس ، ومنهم معد بن يكرب الزبيدى وأبوموسى الأشعرى فى تهامة ، وقيس بن مكشوح المرادى

---

(١) تاريخ اليمن السياسى للحداد ص ١٥١ مرجع سابق .
(٢) أنظر تاريخ الطبرى الجزء الثانى ص ٥٣٦ .

فى مأرب ، والأشعث بن قيس الكندى فى حضرموت وغيرهم كثير(١) .

فثورة عبهلة بن كعب العنسى ومعد بن يكرب الزبيدى وقيس بن مكشوح المرادى والأشعث بن قيس الكندى وغيرهم من القيادات اليمنية البارزة لم تكن ردة ولاخروجا ونقض عهد للرسول وخليفته أبى بكر الصديق ، وعودة إلى الجاهلية والكفر والوثنية وعبادة الأصنام وادعاء النبوة إلى غير ذلك مما درج عليه الرواة المتعصبون بلا فهم عقلى ، والمحدثون عن التاريخ من وجة نظر معينة وبسذاجة لم تعد تقوى اليوم على الصمود أمام مناهج العلم التاريخية والاجتماعية الحديثة ، فتلك الانتفاضه كان سببها وأساسها الواقعى هو سوء تقدير القيادة السياسية فى المدينة ـ لسبب أو لآخر ـ للخلفيات السياسية والتاريخية والاجتماعية والحضارية التى كانت تكمن وراء أستجابة اليمنيين الواسعة النطاق على اختلاف مستوياتهم للدعوة الإسلامية والدخول فيها ، والتى من أهمها طموحهم إلى تأكيد وحدتهم مع أخوانهم فى الشمال والقضاء على كل بقايا النفوذ الاجنبى فى الجنوب ، وصولا إلى تكوين دولة عربية قوية موحدة فى ظل الدعوة الجديدة ، تعيد ما كانوا قد افتقدوه من قوة ومنعه وتضمد ما كان قد استفحل من جراحات الصراع مع الغزاة الأجانب من الأحباش والفرس ، لكنهم فوجئوا بنتائج شبه عكسية تماما ، كما سبقت الاشارة وكما يؤكد ذلك ما جاء فى رسالة من أبى بكر إلى ذى الكلاع الحميرى ، وهو من القادة اليمنيين الذين كانوا ما يزالون شبه محايدين تجاه أحداث الانتفاضة الوطنية قوله : أعينو الابناء (أى أبناء الفرس وفيروز واحدا منهم)على من ناوءهم وحوطوهم وأسمعوا « من فيروز » وجدوا معه فإنى قد وليته(٢). وفى كتاب من قيس بن مكشوح المرادى إلى ذو الكلاع نفسه حول نفس الموضوع وبعد أن علم برسالة أبى بكر إليه ورد قوله :

---

(١) راجع محمد على الأكوع : الوثائق السياسية اليمنية من قبل الإسلام إلى ٣٣٢ هجرية ، دار الحرية للطباعة بغداد ، الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، ص ١٠٣ و ١٠٤ و ١٢٤ و ١٤٨ و ١٥٦ و ١٥٧ و ١٥٨ و ١٥٩ . مع ملاحظة أننا نعتمد على الأكوع فى الحصول على المعلومات فقط لكننا قد نختلف معه فى كثير من وجهات النظر التحليليه .

(٢) أنظر تاريخ الطبرى الجزء الثانى ص ٢٣٦ .

إن « الأبناء » نزاع فى بلادكم وثقلا عليكم وأن تتركوهم لن يزالو عليكم ، وقد أرى من الرأى أن اقتلوا رؤسهم وأخرجوهم من بلادنا[١] . ومن رسالة لعبهلة العنسى لمعاذ بن جبل حول خراج اليمن ونقله إلى المدينة جاء قوله : أيها المتوردون علينا أمسكوا علينا ما أخذتهم من أرضنا ووفروا ما جمعتهم فنحن أولى به وأنتم على ما أنتم عليه[٢] .

ولقد استطاعت تلك الإنتفاضات على الأقل أن تكشف لأبى بكر بعد وقت قصير من توليه وللخلفاء من بعده مخاطر سياسة التمسك بتولية الأبناء من الفرس على اليمن ، والتى أعرض عنها فيما بعد وقرب منه بقلب المؤمن الصادق والمخلص لجوهر الدعوة الإسلامية كل قادة اليمن ، بما فيهم قادة الإنتفاضة نفسها ، أمثال عمرو بن معديكرب الزبيدى وقيس بن مكشوح المرادى والأشعث بن قيس الكندى وغيرهم[٣] .

وامتص بذلك كل جذور الفتنة تماماً فى اليمن ، ولقد ترجم اليمنيون بعد ذلك كل أبعاد حبهم وإخلاصهم للدعوة وطموحاتهم وآمالهم التى علقوها عليها حقيقة تحت قيادة أبى بكر ومن بعده عمر بن الخطاب ، والتى كانت سنوات خلافتهما بعد الرسول هى بحق العهد الذهبى ، لا بالنسبة لليمنيين فحسب ، بل وبالنسبة للتطبيق الحقيقى لجوهر الدعوة الإسلامية ومثلها وأخلاقياتها النقية على النطاق السياسى والاجتماعى والدينى ، الذى كان يطمح إليه اليمنيون وغيرهم ، وحتى عودة الارستقراطية والاقطاعية الأموية إلى السلطة فى عهد عثمان وبشكل نهائى فى عهد معاوية ، الذى يمكن اعتباره عهد مفترق الطرق بلا رجعة هذه المرة .

---

(١) أنظر د . جواد على : المفصل فى تاريخ العرب الجزء السابع ص ١٩٣ .

(٢) أنظر تاريخ الطبرى الجزء الثالث ص ٢٢٩ ، وتاريخ الحداد ص ١٥٠ إلى ١٥٥ . وانظر فى ذلك أيضاً الوثائق السياسية اليمنية للاكوع ص ١٤٨ .

(٣) أنظر فى الموضوع ككل تاريخ اليمن السياسى للحداد ص ١٥٠ إلى ١٥٥ (مرجع سابق) مع ملاحظة أن عبهلة العنسى هو الوحيد تقريباً من قادة الانتفاضة الكبار الذى لم يعد إلى المدينة ، لأنه كان قد قضى نحبه فى أواخر عهد الرسول وذلك عندما قتله الأبناء من الفرس غيلة وبعثوا برأسه إلى الرسول فى وفد كبير منهم يصل إلى ثلاثمائة شخص ، ولكن الرسول توفى قبل وصولهم ، وكان قد علم بمقدمهم قبل موته فأوصى بهم أصحابه وبمن فى اليمن منهم خيراً. راجع الوثائق السياسية اليمنية للأكوع ، ص ١٣٣ و ١٣٤ .

أهل اليمن فى صدر الأسلام

هذه العبارة هى عنوان أحدث دراسة تاريخية جادة عن أهل اليمن فى صدر الأسلام للدكتور نزار عبد اللطيف الحديثى ، وهذه الدراسة الجادة والمركزة ربما تكون — فى تقديرنا على الأقل — هى أفضل دراسة حديثه ومعاصرة يمكن الأعتماد عليها والأنطلاق منها إلى تحقيق رؤية إجتماعية صحيحة ومتكاملة عن أهل اليمن فى تلك الفترة ، وعن المجتمع اليمنى بصفة عامة ، وذلك نظراً لما بذله الباحث من جهد كبير فى الكشف عن الوقائع والأحداث والمعلومات الدقيقة من مصادرها المباشرة والمشتته عن هذه القضية فى عشرات الكتب والمجلدات والموسوعات الكبيرة من جهة ، ولما تحلا به الباحث من حسن العرض العلمى المركز فى صفحات قليلة بلا حشو ولاأطناب من جهة ثانية ، وما يتمتع به الباحث من موقف علمى محايد ومعالجة منهجيه معاصرة .

لكل ذلك فقد رغبنا فى استيفاء الحديث عن المجتمع اليمنى فى تلك الفتره إضافة الى ما سبق ، من خلال فتح حوار نقدى مع ما جاء فى هذا البحث القيم والتعليق عليه سلبا وإيجابا من جهة ، واستيفاء لكل الجوانب التى نحرص على إستيفائها عن هذه الفتره الحاسمة فى تاريخ المجتمع اليمنى من جهة أخرى وتحت نفس العنوان .

فإذا ما تجاوزنا الفصل الأول الذى يركز فيه على الوصف الجغرافى لليمن إلى الفصل الثانى والثالث الذى يتعرض فيهما للأوضاع الأجتماعية والسياسية فى اليمن عند ظهور الأسلام ، وهو ما يهمنا أكثر فى هذه الدراسة ، لوجدنا أن الباحث قد وفق إلى حد كبير فى تشخيص تلك الأحوال ، والتى تتلخص فى إنتشار إمارات ومما لك الأقيال والأذواء والمثامنه الأقطاعيين ، والذين أطلق عليهم الطبرى والهمدانى إسم « ملوك الطوائف[1]. والمشتته هنا وهناك وذات المضمون الأقتصادى والأجتماعى المركب من الأقطاع والقبلية ، والتى قامت على انقاض سلطات الدول المركزية القوية القديمة ، حيث يذكر

---

(١) راجع كتاب الاكليل للهمدانى الجزء الثانى ، ص ٢٩٤ و ٢٩٥ .

الدكتور الحديثى فى هذا الشأن قوله : وقد أدى سقوط الدولة الحميرية فى القرن الخامس الميلادى إلى فقدان اليمن لسلطة سياسية عليا وطنيه توحدهم وتلم شملهم ، فأخذت عوامل كثيرة تعمل على تفكيك وحدتهم وإضعاف آثار النظم الموحدة التى وضعها الحميريون وإلى إظهار صيغ إجتماعية جديدة « قبليه على الأغلب »[١]. وهو الأمر الذى أدى بعد ذلك إلى إخفاق هذه الممالك والأمارات الأقطاعية والقبلية فى مواجهة الغزو الحبشى ، بل إن تواطىء بعض الأسر الحميرية — كما يقول الدكتور الحديثى أيضا — مع الأحتلال محتمل ومتوقع ، لأن غياب السلطات المركزية أفاد اولائك الذين كانوا يتطلعون إلى النفوذ ولم يكونوا قادرين على تحقيقه ، خاصة وأن طبقة الأذواء وهى واحدة من أركان النظام الحميرى القديم قد بدأت تتحول إلى طبقة إقطاعيين منذ القرن الثانى قبل الميلاد [٢] .

ولقد كانت المعارضة الوطنية التى واجهها الحكم الحبشى هى معارضة ذى يزن وهى — كما يقول الدكتور الحديث أيضا — إسرة حميرية عاديه تسكن السرو ولحج ومرخه واحور وليست من الأذواء الكبار ، بل يبدوان الأذواء قد خذلوا حركة ذى يزن وتواطىء بعضهم مع الفرس ضده بعد انتصاره[٣] .

---

(١) د . عبد اللطيف الحديثى : أهل اليمن فى صدر الاسلام ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، ص ٦٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٨١ و ٨٢ ، وانظر فى ذلك أيضاً سيرة ابن هشام ج / ٢٢٨ — ٢٣٥ . (نقلا عن المرجع السابق) .

(٣) نحن لانميل مطلقاً إلى الأخذ بفكرة أن بعض من بقايا الأحباش المستخدمين لدى سيف هم الذين نفذوا جريمة الاغتيال ثأراً منهم لأسقاطه لملك آبائهم فى اليمن وطردهم منها ، لأن مثل هذا التلفيق يخلو من كل الدلالات السياسية التى تدعمه ، لأن المستفيد الحقيقى الأول من اغتيال سيف هم الفرس الذين كانوا يطمحون إلى حكم اليمن والاستيلاء على ثرواتها وممراتها التجارية من جهة يساعدهم فى ذلك بعض أمراء الممالك الاقطاعية المحليين الذين كان سيف قد بدأ فى تقويض مصالحهم بعنف وصولا لاستعادة الدولة الوطنية المركزية القوية المفقودة والذين من بينهم فروة بن مسيك المرادى ، الذى كانت له كما يبدو علاقة وطيدة مع الفراس فى صنعاء ومن المقربين إليهم يوكد ذلك وجود حيين رئيسيين من أحياء المدينة أحدهما باسمه « فروة » والآخر باسم والده « مسيك » حتى يومنا هذا ، وإذا كانوا قد وجدوا ضعفاء النفوس لتنفيذ الحلقة الأخيرة من المؤامرة من بقايا المستخدمين الأحباش فذلك يجب أن لايخفى وجه الحقيقة ، لأن مثل هذه الأمور ماتزال لها أمثلة كثير فى تاريخ المجتمع اليمنى .

وهو الأمر الذى أدى به فى البدايه إلى البحث عن مصادر عون خارجيه . وهو الأمر الذى تكرر بنفس الصورة تقريباً بعد حين بالنسبة للحركة الوطنيه بقيادة عبهلة بن كعب العنس ضد الحكم الفارسى فى صنعاء بعد مقتل سيف بن ذى يزن ، حيث انقسمت هذه الأمارات والممالك الاقطاعية فى موقفها من الحركة ، فأيدتها خولان ومد حج التى منها عبهلة نفسه ، ووقفت منها حمير فى البدايه على الحياد ، لأنها كانت ترى أنها أولى بقيادة أى حركة لأستعادة السلطة والأستيلاء عليها ، لأنها أصل الملك ومنها ذويزن الذى كان على وفاق ودى مع فارس ، خصوصا وأن اكذوبة الحاق حادثه اغتيال ذى يزن ببعض المستخدمين من الأحباش وليس الفرس وهم القتله الحقيقيون يبدوان هذه الأشاعة قد إنطلت على حمير بعض الشىء الأمر الذى أداء إلى تقليل حماسها للمشاركة فى تلك الحركة فى البدايه وإن كانت لم تقاومها أو تتحالف ضدها بل لقد إشتركت فيها فى النهاية ، على نحو ما سنرى بعد قليل .

هذا فى الوقت الذى مالت همدان الكبرى (تحالف حاشدو بكيل) إلى التحالف مع الفرس ضد الحركة منذ خطواتها الأولى ، حيث عقدوا حلفهم المشهور مع باذان قبل وصول الدعوة الإسلامية إلى اليمن بقليل والحركة ما تزال فى بدايتها فى منطقة مذاب من الجوف ، والذى وقعه عمرو بن الحارث بن الحصين الشاكرى رئس بكيل ، وعمرو بن يزيد بن الربيع الحاشدى ، واتفقوا على عقد حلف ضد القبائل المتجمعة فى مذاب من بلاد الجوف، والتى كانت ما تزال تحاول شد اطراف اخرى إلى جانبها . وقد جاء فى نص هذا الحلف المشئوم : « هذا كتاب ما اجمعت عليه همدان وفارس باليمن ، بمحضر المرزبان باذان بن ساسان ومشاهدة الرئيسين عمرو بن الحارث وعمرو بن يزيد من بكيل وحاشد ، ورضى من حضر وكفاله بعضهم لبعض عمن غاب من الحيين جميعا أنا تحالفنا جميعا على عهد الله

وميثاقه واجتماع الهدى واتفاقه وقتال المخالف وفراقه . . . الخ[١] .

وهكذا تتاكد حقيقه ما سبق لنا الأخذ به والتاكيد عليه تفصيلا فى ثناياً هذا البحث وفى بحث آخر لناسبق نشره عن التراث الشعبى اليمنى وعلاقته بالتنمية[٢] من أن التنظيمات الأقطاعية والقبلية فى المجتمع اليمنى القديم والجديد هى دائما الأفراز الجد لى المشوه لحالات الضعف وانهيار الدول الوطنية المركزيه القويه ، وأن مجمل الظروف الأقتصادية والاجتماعية والجغرافية والأستراتيجية لليمن عبر التاريخ لا تسمح بوجود انظمة عبودية أو اقطاعية أو قبليه متلازمة ووجود وحدة وطنيه وازدهار حضارى متقدم من أى نوع ، ولا حتى وجود دولة مركزية قوية على النمط الأقطاعى الذى قد ينجح فى إقامة دول وانبرا طوريات مركزية قوية فى اماكن أخرى تتميز بشروط تاريخية وجغرافيه واقتصادية مختلفة ، على نحو ما سبقت الاشارة فى أكثر من مكان بالنسبة لوادى النيل ودجلة والفرات والهند وغيرها ، ناهيك عن المفهوم القبلى الذى يتنافا وجوده جدليا وتاريخيا مع كل شكل من اشكال الوحدة الوطنية ومع ابسط مفاهيم وجود الدولة مهما كانت طبيعتها ومضمونها عبر التاريخ وفى كل زمان ومكان تقريباً .

وذلك هو لأمر الذى لم يتنبه إليه الدكتور الحديثى وغيره من المؤرخين والرواه بالنسبة لليمن خاصة وغير اليمن عامة بسبب افتقارهم للرؤيه الاجتماعية فى قراءة التاريخ وكتابته ، بل لقد ذهب الحديثى فى معظم تحليلاته وكما لو كانت النزعة القبليه البحته هى كل شى بالنسبة للمجتمع اليمنى وما حاول أن يتوصل إليه من حقائق سياسية وتاريخية مختلفة ، خصوصا فيما يتعلق

---

(١) أهل اليمن فى صدر الاسلام ، ص ٩٠ . وأنظر فى ذلك أيضاً الوثائق السياسية فى تاريخ اليمن للاكوع ، مع ملاحظة أن صيغة بعض الألفاض هى إسلامية لاحقة اجتهد فيها الرواة وهذا لاينفى حقيقة مضمون الخلف السابق على الاسلام والمتواترة حقيقته وما يهدف إليه باجماع المؤرخين .

(٢) راجع كتابنا التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، مركز الدراسات اليمنية صنعاء ، ١٩٨٠ ص ١٨٩ إلى ١٩٥ .

بمرحلة ما بعد الإسلام واثناء حروب الفتح والتحرير التى تمت على اكتاف اليمنيين واسنه رماحهم ، وذلك على نحو ما سنرى بعد قليل .

فإذا كان الدكتور الحديثى قد وفق فى الأشارة إلى الكثير من المسائل التى نشاركه الرأى فيها على نحو ما سبقت إليه الأشارة ، إلا أن التوفيق لم يحالفه كثيراً فى معالجته لكيفية إسلام أهل اليمن وتطور علاقتهم السياسية بنواة الدولة الإسلامية الجديدة فى المدينة بعد ذلك ، خصوصا فيما يتعلق بماسمى بحروب الردة فى اليمن ، فهو يذكر بحق بأن حالة التفكك السياسى والاجتماعى فى اليمن قبيل الاسلام قد انعكست فى شكل توجه وفود أهل اليمن إلى المدينة ، حيث لم يظهر على الوفود أنها تمثل وحدات قبلية كبيرة متحدة ، أو حتى قبائل كبيرة با إستثناء حمير إلى حدماء (١) . غير ان هذا التعدد فى رأينا لم يكن تعبيراً عن اوضاع وجماعات قبلية تاريخية أصيلة تنقصها الوحدة فى ذلك الموقف كما يذهب إلى ذلك الدكتور الحديثى بصورة غير مباشره على الأقل ، بقدر ما أنه كان تعبيراً مباشراً عن شتات وتمزق سياسى واجتماعى استفحلت جذوره بفعل غزو أجنبي مسيطر من جهة ، وانتشار الممالك والأمارات الأقطاعية والأقليمية شبه المستقلة للأقيال والأذواء ، التى فشلت فى مواجة الاحتلال الأجنبي للفرس ، بل لقد مال بعضها إلى التواطىء معه كما رأينا قبل قليل ، والذين تنتعش وتزدهر مصالحهم الفردية فى مثل هذه الظروف التى تنعدم أو تضعف فيها السلطة الوطنيه المركزية للدولة دائما وحتى اليوم(٢) .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الدكتور الحديثى قـد عالج التطورات والأحداث الاحقة فيما بعد من خلال تعبيره المهذب « تطور علاقة الأسلام باليمن » الذى جعله عنوانا للفصل الثانى من الباب الثانى من الكتاب ، كما إستخدم عبارة « المعارضة » بدلاً من « الكفرة والمرتدين »

---

(١) أهل اليمن فى صدر الاسلام ، ص ١٠٧ .

(٢) راجع كتابنا التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، مركز الدراسات اليمنية ١٩٨٠ ، ص ١٨٩ إلى ١٩٥ .

التى دأب كل المؤرخين والمحدثين بتعصب فى وصفهم لتلك التطورات ، وشكل بذلك أول سابقة حسنه تقريباً تختلف عما سبق ، إلا ان الدكتور الحديثى وإن كان قد ضمن تحليله الكثير من الأشارات إلى بعض الحقائق بنوع من الاستحيا والحذر عن تلك الأحداث إلا أن الغموض والتناقض قد طغى على الجانب الأكبر من عرضه وتحليله لسبب أو لآخر إن لم يكن قد مال إلى تاكيد كل الآراء والأفكار التقليدية عن تلك الأحداث بطريقه أكثر تهذيباً وبصورة غير مباشرة على الأقل .

فهو يقول مثلا وبتعبيره المهذب : بأن دوافع « المعارضة » غير واضحة ، ولو أنه بالأمكان القول بأن سياسة الرسول لم تكن لتنسجم مع كثير من الأوضاع السائدة فى اليمن والتى ترتبط بها مصالح أناس متعددين . ويعزو أسباب المعارضة إلى إحتمالين هما : ثقل الجباية الاقتصادية ونزعة الاستقلال (يقصد إستقلال الأذواء عن الدولة المركزية) التى تحكمت لفترة طويلة بأهل اليمن ، وأن سياسة الرسول قد واجهت كلا الاحتمالين معا[١] . وبالرغم من أن الدكتور الحديثى قد التمس بعض المبررات غير الموضوعية التى تسقط حق « المعارضة » وتدعم وجهة النظر السياسيه للدولة الجديده فى المدينة بقوله : إن الرسول كان قد أوصى باعفاء الطبقات الفقيرة من الضرائب وأن الأذواء قد عارضوا الاجرآت الأدارية لأنها كانت تهدف إلى إقامة سلطة مركزية تحد من مصالحهم الأقليمية .

إلا أن هذا التبرير إذا لم يكن خالى من الصحة والدليل فهو غير مقنع بالنسبة لنا على الأقل ، لأن المعارضه كانت تنطلق فى موقفها من منطلقين رئيسين الأول إقتصادى والثانى سياسى ويختلفان تماما فى مضمونهما عما ذهب إليه الدكتور الحديثى ، لأن المعارضة لم يكن دافعها مقاومة النظام الضريبى الجديد الذى يتجاوز حدود طاقتهم ، بقدر ما أنه كان يتلخص فى اعتراضها على نقل كل خراج اليمن وحاصلاتها الكثيرة إلى المدينه ولم يبق منه

---

(١) د . الحديثى : أهل اليمن فى صدر الاسلام ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ص ١١٩ .

شيء للأنفاق على المصالح العامة للمجتمع وفئاته الفقيرة وفق ما تقضى به التعاليم الإسلامية ، وهذا هو دافع المعارضة الأول ، ذلك أن النظام الضريبى الذى صدره الرسول فى عدة خطابات إلى أهل اليمن وولاتها فيما يتعلق بعشور الارض وزكوات الماشية . . . الخ لم يكن فيها أى جديد تقريباً بالنسبة لليمن لأنها كانت على ما يبدو موجودة من قبل كانظمه ماليه وضريبية قديمة على الأرجح ، بدليل أنه لم تصدر عن الرسول أيه تعاليم مماثله فى هذا الشأن إلى غير أهل اليمن(١) . ولأن نظام عشور الأرض العائدة للدولة وما شابه ذلك هو نظام يمنى قديم بكل تاكيد(٢) .

وبذلك لا ينتفى ما ذهب إليه الدكتور الحديثى من أن احد اسباب المعارضة الرئيسية هو فرض نظام ضريبى جديد ومرهق على أهل اليمن ، بل ويمكن القول بأن اليمن هى المصدر التاريخى الحق للنظام المالى والضريبى فى الاسلام خصوصا وأنها قد ظلت حتى بعد وصول الاسلام إلى مختلف الأمصار تتمتع بنظام مالى وضريبى خاص وهو نظام الأراضى العشرية التى يؤخذ عشر حاصلاتها ولاتنتزع ملكيتها القانونيه من أهلها ، ولم تكن فى أى وقت اراضى خراجية يوخذ منها خمس حاصلاتها وتنتزع ملكيتها القانونيه من اهلها وتصبح ملكيتها شرعيه بمعنى مجرد تكليف أهلها بزراعتها كما حدث فى معظم الامصار الاخرى .

أما السبب الثانى الذى بنا عليه الدكتور الحديثى تفسير موقف المعارضة وهو سبب سياسى ، ويلخصه فى معارضة الاذواء لسياسة الدولة الجديدة فى المدينه والراميه إلى إيجاد دولة مركزية موحده فى اليمن والجزيرة العربية بصفة عامة ، وذلك نظراً لما ستلحقه مثل هذه السياسة من اضرار بمصالح هؤلاء الأذواء الاقطاعيين ، فإننا نتفق مع الدكتور الحديثى فى ذلك فرضا ، لأن مثل هذا الأمر محتمل ووارد جدليا ومنطقيا ، على أساسى ان نتأكد

---

(١) راجع محمد الأكوع : الوثائق السياسية اليمنية من قبل الاسلام إلى سنة ٣٣٢ هـ دار الحرية للطباعة بغداد ، ١٠٧٦ ص ٩٥ إلى ١٠٣ .

(٢) راجع تاريخ اليمن السياسى للحداد ، ص ١٢٢ إلى ١٣٢ .

أولا ونقدم الأدلة القاطعة بأن سياسة نواه الدوله العربية الجديدة فى المدنية قد نهجت فعلا هذا النهج الوطنى والقومى الصحيح ، وهو الأمر الذى قد لا تسعفنا الوقائع على إثباته ، إن لم يكن النهج المعاكس هو الأقدر على تأكيد نفسه ، خصوصا إذا ما تذكرنا بأن أول خطاب يصدر عن الرسول لأهل اليمن للدخول فى الإسلام كان قد توجه إلى ذى الكلاع الحميرى الذى إستجاب ومعه كثيرون غيره كما نعرف ، وكان أول قرار سياسى يصدر فى المدينة فيما يتعلق بالسلطة فى اليمن هو إقرار باذان بن ساسان حاكما عليها ، وهو محتل اجنبى اللحم والدم واللسان ، والذى كان وجوده ومن معه من الفرس كحاكم بأسم فارس فى اليمن هو أعظم تحد سياسى ووطنى ظل اليمنيون يقاومونه من خلال نفس الحركة الوطنيه بقياده عبهلة منذ ما قبل وصول الدعوة إلى اليمن ، وماذهابهم إلى المدنيه طواعية فى جماعات وافرادا معلنين إسلامهم وتأييدهم للدعوة الجديدة باعتبارها دعوة أخوة عربية وقوميه الابحثا عن منطلق جديد لدعم موقفهم إزا هذا التحدى ، فكان إقرار باذان حاكما عليهم بعد عودتهم إلى بلادهم هو أعظم تحد تاريخى لمشاعرهم ومشاعر اليمنين جميعا فى تلك المرحلة ، ويكفى وحده جداً كسبب قوى لشرعية المعارضه ضد سياسة المدينة وتصعيد الحركة إلى ثورة وطنيه شاملة ضد الأحتلال بالفعل ، والذى إذا كانت اللعبة السياسية لقادته من الفرس قد إنطلت على سياسة المدينة باعلان تقمصهم للدين الإسلامى كتصرف إنتهازى وصولا إلى إجهاض الثورة ضدهم والأستمرار فى التسلط باسم الدين فإن هذه اللعبة لم تنطلى على أهل اليمن الذين نظروا إلى الدعوة كوسيلة جديده للتخلص من الاحتلال ، لا كمبرر لأستمراره تحت أى إدعى دينى ، لأن اليمنين كانوا يتعاملوا مع الدعوة بعقولهم وفى ضوء مصالحهم الواطنيه العليا لا بالعواطف والمثاليات العقائدية المجردة والبعيدة عن حقائق الوقع التى ربما تكون سياسة المدينة قد وقعت فيها بكل تأكيد حينما أقرت باذان حاكما على اليمن لمجرد أنه قد أعلن إسلامه ، لاحبا فى الإسلام بل دفاعا عن نفسه ومصالحه كغازى أجنبى فى مواجة ثورة وطنية شاملة ، إلى غير ذلك من الأجرآت الأدارية التى من هذا القبيل أو ما يشبهه .

ومن ذلك مثلا تعيين وائل بن حجر على كندة بحضر موت وهو الذى ينتمى لأحدى البطون الصغيرة من حمير المقيمة فى حضر موت بدلا من الأشعث بن قيس الكندى زعيم كندة الحقيقى ، فإذا قبلنا بذلك كأتجاه لأضعاف الزعامات القبلية والأقطاعية المحلية فى سبيل إقامة الدولة المركزية ، كما أفترض الدكتور الحديثى ، فإن ما حدث من تعيين فروه بن مسيك المرادى على منطقة مدحج وهو شخصية ارستقراطية كبيرة ومكروهة فى مدحج وغيرها ، بل ومتهم بالخيانة الوطنية بعمالته لحكام فارس فى صنعاء والعيش فى كنفهم وتواطئه فى جريمة إغتيال سيف بن ذى يزن ليمكن للفرس من الأستيلاء على السلطة كما سبقت الأشارة ، هو أمر لايمت إلى مثل هذا الأتجاه بصلة ، شأنه شأن إقرار باذان حاكماً عاماً على اليمن ، بينما كان الزعيم الوطنى الحق لمدحج والذى جاء فى طليعة الوفود إلى المدينة هو قيس بن مكشوح المرادى ، والذى قام بطرد فروة بن مسيك والأنضمام بمدحج كلها لحركة المعارضة بقيادة عبهلة بن كعب العنس ، كما فعل الأشعث بن قيس الكندى نفس الشىء بوائل بن حجر الحميرى فى حضر موت .

والقضية الأخرى الأكثر أهمية هو ما يتعلق بمرحلة ما بعد تطور المعارضة إلى حركة وطنية شاملة لكل الأسباب السابق ذكرها ، وتمكن عبهلة العنس من دخول صنعاء وقتل شهر بن باذان الفارسى والبدء بطرد الأبناء من الفرس . (١) وانسحاب معاذ بن جبل من الجند إلى حضر موت ثم العودة إلى المدينة ، وتغلب الحركة بإجماع المؤرخين على ما بين صهيد (مفازة حضر موت) — كما يقول الطبرى — إلى عمل الطائف إلى البحرين ، وثبت ملكه (أى عبهلة) واستغلض أمره ودانت له سواحل من السواحل حاز عثر والشرجة والحردة وغلا فقه وعدن والجند ثم صنعاء إلى عمل الطائف إلى الأحسيه وعليب . (٢) إلا أن الدكتور الحديثى يعقب على هذه

---

(١) يقال أن أصل تسمية الفرس بالأبناء فى اليمن يرجع إلى عهد سيف بن ذى يزن ، لأنهم حينما أتوا معه بعد عودته من فارس كان اليمنيون يسألون من هؤلاء فيقول إنهم أبنائى ، فعرفوا بسبب ذلك بالأبناء فيما بعد .

(٢) راجع تاريخ الطبرى ، الجزء الثانى ص ٢٣٠ .

الرواية التى تشير إلى الشمول غير العادى لهذه الحركة وإنتصارها السريع بقوله : ويصعب تصديق هذه الروايات لعدم وجود ما يوضح « موقف سكان هذه المناطق من سيطرة عبهلة » كما أنه ليس من السهل رفضها لأنه لم يصل لنا ما يناقضها . (١) كما يذكر فى الصفحة التالية مباشرة قوله : ويظهر أن الرسول صلى الله عليه وسلم راسل فى هذه الفترة أشخاصاً من أهل اليمن غير الذين كان قد راسلهم وأتصل بهم من قبل والذين « نجهل مصيرهم » ويضيف قوله بأن آخر من ارسله الرسول وهو « وبر بن يحنس » لم يذهب إلى حمير ولا إلى أولائك الذين راسلهم الرسول ، إنما ذهب إلى الأبناء يبلغهم بطلب الرسول بضرورة الثبات على دينهم والنهوض فى الحرب والعمل فى الأسود العنسى إما غيلة وإما مصادمة ، علما بأنهم كانوا من حاشية عبهلة ولم ترد إشارة إلى إسلامهم من قبل . (٢)

لكن ما الذى يمكن إستخلاصه من هذه الوقائع وما جاء فى تقدير الدكتور الحديثى ؟ إن أهم ما يمكن إستخلاصه بوضوح هو أولا أن الدكتور الحديثى لا يعترض على الرواية المتواترة عن شمول الحركة وغلبتها ، إلا أن ما يهمه وما لم يستطع التأكد منه هو موقف السكان الأصليين من هذه الحركة ، وهى إشارة بالغة الأهميه والدلالة فى تقديرنا ، ولو أن الدكتور الحديثى قد تسلح فى بحثه بمنهج ورؤية إجتماعية نافذه لما شك أو حاول أن يشكك فى موقف السكان والأهالى من تأييدهم للحركة ، لأنه لا يعقل أبداً أن تستطيع حركة سياسية مهما كانت طبيعتها أن تنتشر بهذه السرعة وتحقق هذ الأنتصار الحاسم دون أن تكون معتمدة على تأييد وعطف شعبى واسع ، خصوصاً إذا ما تذكرنا تلك الأسباب السياسية والاقتصادية والإدارية القوية ذات الطابع الوطنى والقومى الشامل ، التى أعتمدت عليها الحركة أو المعارضة على الأصح كما يسميها الدكتور الحديثى (٣) .

---

(١) د . عبد اللطيف الحديثى : أهل اليمن فى صدر الإسلام ، ص ١١٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٧ .

(٣) إن تسمية الحديثى للحركة بالمعارضة بالنسبة لسياسة المدينة هى أفضل تسمية يمكن الأخذ بها ، إلا أنها بالنسبة للفرس تعتبر ثورة وطنية وليست مجرد معارضة ، فهى معارضة بالنسبة للاولى وثورة حقيقة بالنسبة للثانية .

أما الشيء الثانى الذى تجدر الإشارة إليه وتأكيداً لما سبق فهو مايقوله الحديثى من أن الرسول قد راسل فى هذه المرحلة أناسا غير أولائك الذين كان قد راسلهم من قبل والذين يجهل الحديثى مصيرهم كما يقول هو نفسه، ودون أن يذكر أسماءهم ، والذين يقصد بهم كل أولئك الأقيال والأذواء والشخصيات اليمنية الكبيرة بداء بذى الكلاع الحميرى والأشعث بن قيس الكندى ، مرورا بوائل بن حجر الحميرى ومعد بن يكرب الزبيدى وأبوموسى الأشعرى ، وانتهاء بفروة بن مسيك المرادى وقيس بن مكشوع المرادى وغيرهم كثير ممن ذهبوا إلى المدينة من قبل على رأس وفود مناطقهم تلبية للدعوة وأملا فى توطيد روابط الأخوة العربية ، بما فيهم عبهلة بن كعب العنسى الذى حسن إسلامه وإن كان لم يذهب إلى المدينة ، فهؤلاء جميعا لم يكونوا مجهولى المصير فى تلك المرحلة كما يقول الحديثى الذى ربما يكون قد قسى على نفسه هو بهذه العبارة أكثر مما قسى بها عليهم، كما أن الرسول لم يتوقف عن مراسلتهم إبان الحركة وبعد إنتصارها لأنهم ربما قد غلبوا على أمرهم من قبل عبهلة بعد أن حاولوا مقاومته بلاجدوى كما يقول الحديثى ، ولكن الصحيح والثابت أن غالبيتهم الساحقة كانوا ضمن الحركة نفسها ، رغم تردد ذو اللكلاع وهو على رأس حمير ووقوفه على الحياد لبعض الوقت ثم إقتنع بالمشاركة فيما بعد ، بدليل توقف الرسول عن مكاتبته والإقتصار على مكاتبة الأبناء .

حتى همدان (تحالف حاشد وبكيل) التى نجح باذان منذ وقت مبكر وقبل وصول تباشير الدعوة الإسلامية إلى اليمن فى إقناعهم بالتحالف معه ضد الحركة الوطنية بقيادة عبهلة العنسى منذ بوادرها الأولى وهى تجمع أنصارها الأوائل فى منطقة مذاب من بلاد الجوف ، فهمدان هذه إختفاء دورها تماماً بعد مقتل باذان إما لأنها قد غلبت على أمرها أمام زحف الحركة الوطنية نتيجة تواطئهم مع المحتلين الأجانب ، أو أنهم قد نقضوا ذلك الحلف المشئوم وتخلوا عن الأبناء حينما أدركوا حتمية إنتصار الثورة ضدهم ، رغم مايبدو من

إستمرار عواطفهم نحوهم لسبب أو لآخر ، الأمر الذى يبدوا أنه قد إنعكس على إستمرار عواطف الرسول وسياسة المدينة بصفة عامة على همدان هذه بالذات ، وإرسال على بن أبى طالب إليهم وإظهارهم فيما بعد ، وكما لو كانوا هم الفئة الوحيدة التى حسن إسلامها فى اليمن ، لالشىء إلا لأنهم إذا لم يكونوا قد قاوموا الثورة ودافعوا عن الأبناء فإنهم لم يشاركوا فى صنعها وظلوا على حسن نية يتولون رعاية وإيواء من تبقى من الأبناء فى حماهم على مايبدو .

وإذا كان من الثابت بأن الخليفة أبو بكر بعد وفاة الرسول وإغتيال عبهلة الذى يرى الأكوع بأن كلا الحادثتين قد وقعت فى يوم واحد قد سير جيشا إلى حضر موت وآخر إلى تهامة وثالث إلى صنعاء فى محاولة سياسية وعسكرية لنصرة الأبناء وإستعادة الأوضاع إلى نصابها وأطلق الرواة والمحدثون لعواطفهم وخيالهم العنان دون عقولهم فى المبالغة فى وصف إنتصارات هذه الجيوش على المرتدين والكفرة ، إلا أن الرؤية الإجتماعية والتاريخية الصحيحة تؤكد غير ذلك ، وأن الجانب العسكرى فى سياسية أبى بكر تجاه اليمن قد أخفق تماماً إذا لم يكن غير موجود أصلا وهو الراجح ، لأنه لم ترد وقائع تاريخية حقيقية عن معارك عسكرية إستسلمت بموجبها حرباً كل تلك المناطق الشاسعة التى غطتها الحركة إذا ما إستثنينا واقعة الأشعث بن قيس فى حضر موت الذى أستسلم بعد حصار قصير وبناء على تفاوض سياسى مسبق إحتفظ له ولكندة بأكلها بكل إعتباراتهم السياسية والإقتصادية ، كما أن تلك الجيوش التى كان معظم أفرادها أناس عاديين من أهل اليمن أنفسهم كانت أشبه ماتكون بإرساليات سياسية أكثر منها جيوشاً حربية ، لأسباب كثيرة يأتى فى مقدمتها أن دولة المدينة لم تكن قد وصلت إلى الوضع الذى يسمح لها بتجهيز جيوش تقوى على إخضاع هذه المناطق الشاسعة من اليمن قسراً وبهذه السرعة ، ولو إفترض جدلا أن ذلك قد حدث بالفعل لكانت أقل النتائج المنطقية لذلك هو أن تختفى كل رؤوس الحركة وقادتها السابق ذكرهم إما قتلا أو نفياً إلى الأبد ، بدلا من تحويلهم جميعا إلى مايشبه مجلس إستشارى فى السياسية وقيادى فى الحرب بالنسبة لأبى بكر ومن بعده عمر ، ولو أن الحركة قد إنتهت حرباً كذلك لظل فيروز هو الحاكم المطلق على اليمن فى عهد أبى بكر وأكثر مما كان باذان فى عهد

الرسول ، لأن أبى بكر قد أمر بتولية فيروز هذا فى الأيام الأولى من خلافته بعد وفاة الرسول واغتيال عبهلة العنسى واستلام قيس بن مكشوح المرادى لقيادة الحركة بعد إغتيال العنسى ، حيث كان فيروز الفارسى هذا هارباً ومتخفياً فى إحدى ضواحى صنعاء البعيدة فى خولان ، وسطر له أبى بكر خطاب توليته المشهور إلى ذو الكلاع الحميرى لكى يعينه على إسترداد السلطة جاء فيه قوله : أعينوا الأبناء على من ناوئهم وحوطوهم واسمعوا من فيروز وجدوا معه فإنى قد وليته[١] . ولكن ذو الكلاع لم يستجب لأنه لم يثبت قط أن ذو الكلاع أو احد من حمير بكاملها قد ناهض الحركة الوطنيه تلك لصالح الفرس من الأبناء إذا لم يكونوا قد شاركوا فيها فى المراحل الأخيرة كما هو الراجح .

والحقيقة الثابته التى تكمن وراء إعادة الأمور إلى مجاريها بالنسبة لأهل اليمن وعلاقتهم بسلطة المدينه هو أن ما يشبه التفاوض السياسى قد تم بين الخليفة أبى بكر وزعماء الحركه قام الخليفة بموجبه بمراجعه كل المواقف السابقه لسياسه المدينة تجاه اليمن وأنها بموجبه شرعية حكم الأبناء فيها والكف عن أى دعم سياسى أو معنوى لهم ومنح قادة الحركة حق الأمن والبقاء فى بلادهم وفى حاضرة المجتمع الأسلامى الجديد فى المدينه ، والاحتفاظ لهم بحق المشورة فى السياسة والقيادة فى الحرب ضد المرتدين الحقيقيين فى وسط وشمال الجزيرة العربية والاستعداد لتحرير بلاد الشام والعراق ومصر وفقا لخطة كان الرسول قد أوصى بها قبل وفاته . وهو الأمر الذى يشير اليه الدكتور الحديثى بقوله : « ومن المحتمل جداً ورود إشارات الى مفاوضات بين الخليفة وبين بعض قاده أهل اليمن ناتجه عن تمتعهم بنفوذ خاص » وما كان لدولة الخلافة أن

---

(١) راجع تاريخ الحداد ص ١٥٣ ، مع ملاحظة أن الحداد يخلط خلطاً متناقضاً فى هذه المسألة فهو ينسب إلى قيس بن مكشوح المرادى التواطىء مع الأبناء فى قتل عبهلة وهذا غير صحيح لأن المتواطىء الحقيقى هو فروة بن مسيك المرادى كما سبقت الاشارة عن هذا الشخص وليس قيس ، ويبدوا أن الأمر قد اختلط بين الاثنين عند الحداد وبعض الرواة الآخرين ، وإذا كان قد جزم بعضهم بمثل هذا أو قيل فى حينه كذلك فهو أمر من قبيل الدس والأساءة إلى عناصر الحركة وقيادتها ، لأن قيس لايمكن أن يكون قد تآمر مع الأبناء لقتل عبهلة ثم يباشر عملية التنكيل بهم وطردهم من صنعاء ومن اليمن بما فيهم فيروز نفسه ، إنتقاماً منهم لقتل عبهلة ودون أن يتغير المجرى العام للحركة .

تنهض بحروب التحرير دون الأعتماد على قوة وخبرة اليمنيين العسكرية وكثافتهم البشرية[١]. وتبقى ملاحظة واحدة قبل الحديث عن حروب التحرير الاسلامية ودور اليمنيين فيها، وهى ملاحظة تخص عبهلة العنسى هذا واحده، الذى دأب المؤرخون والرواه على جعله كبش الفداء والشماعة التى يعلقون عليها كل ما شأت لهم خيالاتهم وعواطفهم المتعصبة عن تلك الأحداث ، لا لشىء إلا لأن هذا الرجل كان هو الشخص الوحيد من قادة الحركة الذى استشهد غيلة من قبل الأبناء من الفرس ، لأن أى من قيس بن مكشوح المرادى أو معد بن يكرب الزبيدى أو الأشعث بن قيس الكندى ، أو أبو موسى الأشعرى وغيرهم لم يكونوا بأقل أهمية من عبهلة فى هذه الحركة ، ولو أن العمر قد امتد به عاما واحدا على الأقل بعد وفاة الرسول لكان أجدرهم جميعا بالقربى من أبى بكر وأقدرهم على قيادة جيوش التحرير والفتح الاسلامى وأكثرهم إشتياقا لدق أبواب فارس لتخليص دين قريب العهد لليمن ما تزال له بقية هناك ، ولبنيت له قصور فى الجنة بعد موته بدلا من خلوده فى مغارات جهنم ، فهل آن الأوان أن ننصف التاريخ بالحقيقة والعقل ممن يشوهونه بالضلالة والتعصب . ؟

وفى الفصل الثالث من الباب الثانى من كتاب أهل اليمن فى صدر الأسلام يتحدث الدكتور الحديثى عن دور أهل اليمن فى « حروب التحرير » وهى فى تقديرنا تسميه زاخرة بالدلالة ، وتؤكد بحق بأن الجيوش الإسلامية لم تكن جيوش غزو كما يصفها أعداء الإسلام والعروبة من القوميات الأخرى ، من الفرس والرومان والصليبيين ، كما أنها لم تكن حتى جيوش فتح كما يسميها مؤرخوا الأسلام أنفسهم ، ولكنها حقيقة كانت جيوش تحرير قومى بالنسبة للشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا على الأقل ، حيث أشار الدكتور الحديثى تأكيداً لهذه الحقيقة إلى مواطن العروبة البارزة فى

---

(١) د. عبد اللطيف الحديثى : أهل اليمن فى صدر الاسلام ، ص ١٣٥ إلى ١٣٧ .

هذه الأمصار منذ ما قبل ظهور الأسلام بزمن بعيد (١) وهو يعطى أهل اليمن بالأستناد إلى إجماع المصادر التاريخية حقهم فى ذلك سواء فيما يتعلق بمواطنهم القديمة فى هذه الأمصار قبل الأسلام ، أو ما اضطلعوا به من دور تاريخى وحضارى بارز فى حروب التحرير بعد الاسلام وتوطيد اسس ومقومات الدولة العربية الجديده داخل الجزيرة وخارجها ، وذلك فى مقابل التردد الواضح والمشاركة الهامشيه لقبائل شمال ووسط الجزيرة العربية فى مكة ونجد والحجاز وما فى حكمها .

فالحديثى يذكر عن حروب الشام قولة : إن الخليفة كان يدرك أن أهل مكة تجاراً وأن اقدامهم على القتال بطيء ، كما أن بقية الجزيرة فى الشمال والشرق كانت مرتدة ، لذا تراه يخص أهل اليمن(٢) . وفى موضع آخر يقول الدكتور الحديثى إستناداً إلى رواية الأزدى فى التاريخ الكبير : يبدو ان تاثير الأنتصار الذى حققه المسلمون فى اجنادين إقتصر على أهل مكة الذين تخلفوا عن الخروج إلى الجبهة ، أما أهل اليمن فالراجح أن أهلها كانوا قد خرجوا فى بداية المعارك ، وفى معركتى اليرموك ودمشق وردت اوسع الاشارات عنهم ، فالأزدى يذكر فى معركة اليرموك بقوله : وفيها الأزدوهم ثلث الناس ، وفيها حميروهم عظم الناس ، وفيها همدان وخولان ومدحج وخثعم وكندة وحضر موت ، ومعهم « جماعة » من كنانة ولكن عظم الناس أهل اليمن(٣) .

وفى جبهة العراق يذكر الدكتور الحديثى إستناداً إلى تاريخ الطبرى قوله : وقد ادرك الخليفة عجز الحجاز عن إمداد العراق ، وظهر له هذا العجز فى تشكيل جيش أبى عبيده الثقفى ، حيث تأخرت إستجابة الناس للقتال ، ويعلل الطبرى تاخرهم بقوله : وكان وجه فارس من أكره الوجوه

---

(١) أهل اليمن فى صدر الاسلام . ص ١٤٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

إليهم واثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم[١] . ويضيف الحديثى استناداً إلى رواية الأزدى والطبرى أيضا قائلا : ويلاحظ فى جبهة العراق ان دور أهل اليمن واضح كدورهم فى بقيه الجبهات ، أما قبائل مضر وربيعة فقد اقتصر دورهم على العراق فقط ، ويعلل المؤرخون ذلك بأن دارهم عراقيه وأنهم كانوا ينزعون إلى العراق ، علما بأن تاخر خروجهم يعنى تأخراً عن الإسهام فى حروب التحرير حتى سنة ١٤ هجرية[٢] ، ولقد كانت المعادلات السياسية والعسكرية فى جبهة مصر لا تختلف عن جبهتى الشام والعراق بالنسبة لأهل اليمن إن لم تكن أكثر بروزاً .

والدكتور الحديثى يختتم كتابه بفصل قيم عن كيفيه إستقرار اليمنيين القادمين مع نسائهم واطفالهم فى جيوش التحرير فى كل من الشام والعراق ومصر فى صدر الإسلام ، وكيف خططوا لاقامة مدنها وقلاعها وقراها إعتماداً على حقائق ناصعة وموجزة وبالغة الأهمية والدلالة بحيث تجعل من هذا لكتاب القيم مدخلا جيداً لا لمجرد الوصول إلى تحقيق رؤية إجتماعية تاريخية صحيحه عن أهل اليمن فحسب ، بل وعن المجتمع العربى والاسلامى بصفة عامة كما سبقت الأشارة .

وفى ضوء كل ذلك نستطيع ان نتصور كيف ترجم اليمنيون كل أبعاد حبهم واخلاصهم للدعوة وطموحاتهم وامالهم الوطنية والقوميه التى علقوها عليها تحت قيادة أبى بكر ومن بعده عمر بن الخطاب ، والتى كانت سنوات خلافتهما بعد الرسول هى بحق العهد الذهبى ، لا بالنسبة لليمنيين فحسب بل وبالنسبة للتطبيق الحقيق لجوهر الدعوة الإسلاميه ومثلها واخلاقياتها النقية على النطاق السياسى والاجتماعى والدينى الذى كان يطمح إليـــه اليمنيون ، وحتى عودة الأرستقراطيه التجارية والاقطاعية الأموية إلى السلطة فى عهد عثمان ، وبشكل نهائى فى عهد معاويه ، الذى يمكن إعتباره عهد مفترق الطرق بلا رجعة هذه المرة .

---

(١) المرجع السابق ١ ص ١٣٠ . وكذلك تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٤٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٤ . والتاريخ الكبير ١/١٦٢ . الأزدى : ١٩٥ . والطبرى ٣/٣٨٧ . (نقلا عن المرجع السابق) .

فعثمان يعيد من الطريق ، « يعلى بن أمية » عاملا على اليمن وهو راكباً ، بعد أن كان عمر قد طلبه للوصول من صنعاء إلى المدينة مشياً على الأقدام ، عقوبة له على ماشكاه أحد المواطنين اليمنيين من « أهل حفاش » إلى عمر من إعتداء موالى « يعلى » عليه بالضرب دون أن يعاقبهم ، إلا أن عمر توفى قبل وصول « يعلى » إلى المدينة فقابله رسول عثمان إلى الطريق وأخبره بما حدث من موت عمر وسلمه أمر العودة من عثمان إلى اليمن دون أن يسأل عن سبب استدعاء الخليفة الراحل له بهذه الصورة ! ! بل لقد طلب «يعلى» هذا من عثمان واشترط عليه أن لايدخل صنعاء من جديد حتى يأذن له بهدم قصر غمدان وملحقاته ، نكاية فى اليمنيين وإمعانا فى الإساءة إليهم ، وإلى مشاعرهم الوطنية ، لأن القصر وملحقاته من المبانى التاريخية الهائلة التى كانت تمثل مركز ومقر إدارة الدولة القديمة التى لم يعتاد « يعلى » هذا وأمثاله مثلها من قبل ، وأنها ماتزال تشكل مصدر كبرياء اليمنيين وتحضرهم كلما أمعن «يعلى» هذا فى الإساءة إليهم أو التقليل من شأنهم ، وقد وافقه عثمان على ذلك وأمره بهدم القصر وملحقاته باعتبارها ديار كفر .(١) فعاد « يعلى بن أمية » إلى اليمن فعاث وعبث ، وتولى تهديم قصر غمدان وماحوله بناء على أوامر عثمان الذى أقر عمـــالة يعلى على اليمن حتى مـــات .

أما معاوية فقد كانت أولى بوادر سلطته الملكية الامبراطورية بالنسبة لليمن هى إعادة تولية من بقى من الأبناء الفرس من جديد لمقاليد السلطة فى اليمن ، ومنهم فيروز الديلمى وابنه الضحاك بن فيروز.(٢) وهكذا صارت الرياح من جديد وإلى غير رجعة تجرى بما لاتشتهى السفن كما يقول المثل .

هذه بالضبط هى الجذور المادية والموضوعية لمتغيرات الأحداث الاجتماعية والتاريخية فى المجتمع اليمنى قبل وأثناء ظهور الدعوة الإسلامية وحتى انتصارها

---

(١) راجع عبد الرحمن بن على الديبع الشيبانى الزبيدى المتوفى عام ٩٤٤ هجرية : قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ، تحقيق القاضى محمد بن على الأكوع الحوالى مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٧٧ ، ص ٨٣ (أنظر الهامش) .

(٢) راجع محمد يحيى الحداد : تاريخ اليمن السياسى ، عالم الكتب المصرية الطبعة الثالثة ، ١٩٧٦ ، ص ١٥٠ إلى ١٥٥ .

وافتقادها لنقاوتها وطهرها من جديد، والتى أخطأت سلطة الخلافة الإسلامية فى المدينة فى فهمها ، حينما عجزت عن إدراك الدوافع السياسية والاجتماعية والتاريخية لاستجابة اليمنيين للدعوة وحماسهم لها بلا قيد أوشرط ، وكيف نظرت دولة الخلافة إلى هذه المسألة نظرة سطحية ومثالية دينية بحتة لاتخلوا من الميل إلى فرض علاقة سياسية واقتصادية غير متكافئة بين الشمال والجنوب خابت معها كل طموحات وآمال اليمنيين وقادتهم الذين استجابوا للدعوة وصولا إلى تحقيقها ، بدأ بإقرار سلطة الأبناء من الفرس على اليمن وانتزاع كل خراجه الكثير إلى المدينة ، مروراً بأحداث السقيفة بعد وفاة الرسول مباشرة ، يوم أن وضعت العصبية القائمة على الدم « الأئمة من قريش » - كما يقول الدكتور عبد السلام نور الدين - فى مواجهة الأخوة القائمة على الدين ، ووضعت الأفضلية القائمة على الإقليمية أو السبق إلى الإسلام أو تأخره « منا أمير ومنكم أمير » فى مواجهة الأفضلية على التقوى[١] ، وصولا إلى استعادة البرجوازية والاقطاعية الأموية لامتيازاتها الطبقية والسياسية القديمة التى فقدتها بعد فتح مكة فى عهد عثمان وبصورة نهائية فى عهد معاوية ، حينما أفرغت الدعوة الإسلامية من كل مضامينها السياسية والأجتماعية النقية بصفة عامة ، حيث لم تنتهى بفعل ذلك كل آمال اليمنيين وطموحاتهم القديمة الجديدة فحسب ، بل وضاعت معها آمال وحقوق كل من تعلق بهذه الدعوة الإنسانية داخل الجزيرة العربية وخارجها من بسطاء الناس وفقرائهم حتى اليوم .

التطورات اللاحقة

ومن النتائج والتطورات الأكثر جدة فى هذا الشأن ، التى يمكن الخروج بها من خلال مراجعة بسيطة لوقائع التاريخ اللاحق والذى يمثل الامتداد الأكثر سوءا لما قبله والتى عانتها أجيالنا الوسيطة والحاضرة فى اليمن الى مالا يتجاوز العشرين عاماً الماضية وبالتحديد عام ١٩٦٢ وهو عام قيام الثورة وإلغاء الملكية التى تؤكد صدق وموضوعية كل ما ذهبنا إليه من تحليل حقيقة شيوع وأصالة

---

(١) د . عبد السلام نور الدين : مقال فى مجلة اليمن الجديد ، عدد يناير فبراير ١٩٧٨ ، ص ١٤ . وانظر فى ذلك أيضاً ، الملل والنحل للشهرستانى الجزء الأول مؤسسة الحلبى ، ص ٢٢ .

النزوع العقلانى والعلمانى وتقلص الجوانب الاعتقادية المشوهة فى جذور التكوين الحضارى والوجدانى لهذا المجتمع ، وهو ماجرى من أحداث وصراعات بين التيارات المتصارعة طوال عهود الخلافة الأموية والعباسية والفاطمية ، حيث كانت اليمن تحتل مكاناً هاماً فى حسابات المتصارعين ، وبالذات التيار اللبرالى ، الذى كان معظم قادته من شيعة ومعتزلة وخوارج وأسماعيلة وقرامطة وغيرهم يعتقدون جازمين سراً على الأقل بأن انتصارهم سيبدأ من هذه المنطقة التى بدأ منها وبأهلها انتصار الدعوة الإسلامية نفسها ، حيث كانت اليمن مسرحاً حياً لنشاطهم الفكرى وأنتصاراتهم السياسية وإقامة دولهم المستقلة عن مركز الخلافة ، ابتداء بدولة القرامطه تحت زعامة على بن الفضل ومنصور الكوفى ، ومروراً بحلفائهم المعتدلين من الصليحيين وكذلك دولة الخوارج فى حضرموت وزبيد[١] . والذين طبقوا وهم فى السلطة معظم ما آمنوا به من مبادىء لبرالية نموذجية قبل وصولهم إليها ، وانتهاء بإحدى فرق الشيعة المعتدلة وهى « الزيدية » نسبة الى الإمام زيد بن على ، التى لم يكن مذهبها ومبادؤها أقل عقلانية ولبرالية وتحرر من سابقيهم ، ويكفيهم أنهم اعتزاليون فى أصولهم الفكرية ، إلا أن هذا التيار حينما كان يصل قادته من الأئمة السابقين واللاحقين إلى السلطة ، ويحكمون قبضتهم السياسية على البلاد ، كانو يمسخون جوهر هذا المذهب اللبرالى والعقلانى الأصيل ، مسخاً لم يسبق له مثيل وأماتوا فيه كل بادرة للعقل والحرية أو المساواة بين الناس ، وعلى العكس من ذلك فقد حفل تاريخهم بالمهازل الكثيرة لكثرة المدعين الذين لم يكن يمضى على بعضهم أكثر من أيام معدودة[٢] وقد أظهروا فى ممارساتهم وتطبيقاتهم العملية حقيقة الموقف الانتهازى لغلاة الشيعة المنحرفة والمشبوهة فى العراق وغيرها ، والذين تقوم أساس مبادئهم على التفرقة والتميز العنصرى والسلالى الموهوم ، والحقوق الإلهية الموروثة ، إلى غير ذلك من الخرافات والأساطير السخيفة التى حاولت

---

(١) سلطان ناجى : تاريخ اليمن الاسلامى مقال فى مجلة اليمن الجديدعدد نوفمبر ديسمبر ١٩٧٧ ص ٢١ .

(٢) راجع بصفة عامة صفحات مجهولة من تاريخ اليمن ، تحقيق وتقديم حسين السباعى مركز الدراسات اليمنية صنعاء ١٩٧٨ .

أسرة بيت حميد الدين ومن دار فى فلكها ، وهى آخر أسرة ملكية أمامية وصلت الى السلطة وأحكمت قبضتها على اليمن فيما يقرب من خمسة وسبعين عاما ، حاولت تكريسها فى اليمن مستخدمه كل الجهد المعزز بالقوة السياسية والقمعية (١) .

فحرمرا التزاوج بينهم وبين غيرهم ومن لا يدينون بالمذهب المشوه ، ولايدعون الانتساب الخاطىء والوهمى إلى فاطمة ، كما رفضوا تعايش الآخرين معهم إلا وفق شروط من الاحترام والتقديس والطاعة ، وكان الإمام ينزعم بنفسه فى موكب مهيب احتفالات عاشوراء ويوم الغدير فى إحدى ضواحى صنعاء بكل مضامينه وطقوسه المعروفة لدى غلاة الشيعة فى العراق وإيران والهند وباكستان حتى اليوم ، ومارسوا بكل وضوح التمييز العرقى والسلالى والمذهبى فى الحقوق السياسية ، التى حرم منها كل من لاينتمى الى هذه السلالة الوهمية أو إلى التشيع المتعصب لخدمتهم وطاعتهم على الأقل ، والتمييز بنسب مختلفة بصورة مباشرة وغير مباشرة فى كل الحقوق المدنية والاجتماعية والدينية ، بعد أن ألقت هذه الأسرة وكل من دار فى فلكها بكل أصول المذهب فى سلة المهملات وناصبوا الحقد والقمع الوحشى كل من حاول انتقادهم أو التنبيه إلى مساوئهم من العلماء والوطنيين ومن أشد الناس قرباً منهم ، ممن حملوا معهم الفكرة ودعو إليها منذ البداية ، وارتكبوا فى ذلك المذابح والجرائم التى لا تنسى (٢) . بما فى ذلك جماعات مذهب المطرفية الذى حمل أتباعه لواء

---

(١) محمد بن يحيى الحداد : تاريخ اليمن السياسى الطبعة الثالثة ص ١٨٤ (الهامش) ص ٣٣٧ و ص ٣٤٧ — ٣٤٩ طبعة القاهرة ١٩٧٦ م .

(٢) لقد كان من أبرز أشكال الفرض والمعارضة لسياسة الأئمة إلى جانب المواقف الفردية والجماعية للعلماء والوطنيين هو ظهور مذهب « المطرفية » نسبة إلى مطرف بن شهاب وهو من المذاهب الدينية المغمورة فى اليمن وهو منفصل عن المذهب الزيدى والذى حافظ على جوهر منطلقاته وقارع بها الأئمة القدماء واللاحقين ، وقد أبلى أتباعه بلاء حسناً ونكل بهم شر تنكيل ، من قبل الأئمة ، أنظر فى ذلك مجلة اليمن الجديد عدد نوفمبر ديسمبر ١٩٧٧ ، مقال الباحث عبد الله الحبشى بعنوان : المطرفية مذهب مجهول فى اليمن ص ٤٧ يناير فبراير ٧٨ ص ٣٦ إلى ٤٤ فى نفس المجلة ولنفس الكاتب وبنفس العنوان ، وكذلك العدد الذى يليه دراسة لنفس الموضوع فى حلقات .

المعارضة من داخل المذهب الزيدى أولا ، ثم انفصل عنه حينما لم تجد معارضته ، وأبلى أتباعه بلاء حسناً من قبل الأئمة .

ويكفى دليلا على خروجهم وانحرافهم عن أصول الفكر الاعتزالى الذى انبنى على مذهب زيد بن على أنهم أحالوا السلطة من قضية تقوم على الاختيار والبيعة والشورى ، الى مسألة تقوم على الملك والوراثه .

كما أنهم قد تعمدوا تشويه التاريخ السياسى والاجتماعى اليمنى بالنسبة لكل من سبقهم أو عاصرهم فى مرحلة النشأة وممن يقتربون من أصل مذهبهم من أهل الرأى والاجتهاد والعقل ، كالقرامطة والاسماعيلية ، الذين شوه تاريخهم على يد هذه الأسرة وغيرها أيما تشويه ، وينم عن حقد وكره سياسى وطبقى وعرقى لا علاقة له بأى معنى من معانى الدين النقية ، والذى كان مجرد غطاء وثوب شفاف لكل أشكال الصراع السياسى والاجتماعى فى اليمن وخارج اليمن .

ولقد كان جدير بهذا الجهد المركز والطويل المدى ومن خلال امتلاك السلطة السياسية المركزية القوية وفرض العزلة الخارجية والداخلية والركود والتخلف المريع ، كان جدير بكل ذلك أن يغزو قاع المجتمع ويخلق البؤر والجيوب الاجتماعية والحضارية المتحجرة والقادرة على البقاء والاستمرار والتفريخ والولادة ، لكل تلك الأفكار والمفاهيم العقائدية والأرستقراطية والكهنوتية والخرافية الضحلة ، من طراز ما يمكن مشاهدته حتى اليوم فى كربلاء والنجف ، أو حول القبر الوهمى للحسين فى مصر والسيدة زينب أم هاشم « والسيد البدوى » فى مصر أيضاً ، وكذلك ما يجرى على هذا النمط أو ذاك فى إيران وبلاد الهند والباكستان من فئات مدعي الإسلام من هذا الطراز ، وهو ما كانت هذه الأسرة وأشياعها فى اليمن يهدفون إليه ويعملون من أجله بكل الوسائل ، ولكنه بالرغم من كل ذلك ومن النجاح الجزئى لمثل تلك المفاهيم والأهداف الهدامة ، إلا أن أى شىء حقيقى وحاسم لم يتم ، أذ لايوجد اليوم فى اليمن شخص واحد مهما كان جهله أو تخلفه الذهنى والعقلى يرفع سلسلة أو فأساً أو سكيناً ويضرب بها جسده حتى يدمى أو يموت تكفيراً عن الشعور بعقدة الذنب المرضية لمقتل الحسن والحسين أولاد على

بن أبي طالب ، كما يحدث فى العراق وإيران وبعض مناطق الخليج العربى ، كما لا يوجد هناك فى اليمن بطولها وعرضها مكاناً صغيراً كان أو كبيراً تشد إليه الرحال وتقام فيه المآتم والمحافل الأسطورية تبركاً أو تطيراً على الأصح بهذا القبر أو ذلك وعرض الشكوى وانتظار قضاء الحاجة سراً وجهراً كما يحدث فى مصر ، ولم تستطع عجوز أو طفل أن يتمسك طويلا بعقيدة أو فكرة أن الإمام هو ظل الله فى أرضه ، وأنه كان يعلم الغيب ويحكم الجن والإنس ، وأن الرصاص لا تقوى على اختراق جسده ، إلى غير ذلك من الأفكار الخرافية التى كان يحرص الطغاة على ترويجها عن أنفسهم لتخويف الناس ومحاولة مسخ تفكيرهم (١) .

ولقد انتهى كل أثر تقريباً لكل تلك المخلفات العفنة ونسف المجتمع اليمنى كل مفاهيمها ومضامينها الرجعية الكهنوتية المتخلفة وأعاد فلسفة حياته كلها تقريباً من جديد ، بحثاً عن وجوده الحقيقى المفقود من جديد عبر مرحلة تاريخية جديدة من النضال والمعاناة منذ ثورة عام ١٩٦٢ التى ألغت الملكية والإمامة ووضعت حداً نهائياً لحكم تلك الأسرة ومن دار فى فلكها إلى الأبد ، وأقامت نظاماً جمهورياً وشعبياً لايفرق بين شخص وآخر أو فئة وأخرى (٢) .وهو اليوم يتعامل مع أكثر إفكار العصر عقلانية وعلمية وتحرراً ،أفكار الأممية والإشتركية التقدمية ،ويبنى من خلالها حاضره ومستقبله ، محققاً بذلك أشجع تجربة ثورية وتقدمية معاصرة ليس على النطاق القومى فحسب بل وعلى نطاق بلدان العالم الثالث أيضا .

---

(١) من الوقائع المشهورة التى تؤكد رغبة سياسة الأئمة المتأخرين جداً فى نشر الخرافة وجعلها عقيدة من أجلهم ، القصة التى حدثت فى أواخر أيام الإمام يحيى تقريباً ، حينما أراد أن يعرف مدى ماقد وصلت إليه جهوده وجهود أشياعه فى عملية نشر الخرافة والأفكار المسمومة وتقبل الناس لها ، حيث أعلن رسمياً بأنه سيطلق سراح ملك الجن من عقاله وأنه سينطلق هو وجنه فى كل مكان وعلى كل إنسان لكى يتجنب شروره أن يضع بين عينيه علامة سوداء من القطران ففى ذلك حرز لهم ، ففعل كثير من الناس فعلا واضطربت مشاعرهم إلى حين ، وهى واقعة لم تنس بعد .

(٢) راجع حمود العودى : المنظور العلمى للثقافة دراسة خاصة عن المجتمع اليمنى ص ١٢٦ ، ١٢٧ طبعة القاهرة ١٩٧٣ م .

وقبل أن ننهى الحديث حول هذه النقطة الهامة ألا يكون من حقنا القول بأن فى هذا الأمر أيضاً قرينة إجتماعية وحضارية أخرى دالة على أصالة النزعة العقلانية المتحررة فى وجدان هذا المجتمع ، والزهد وقلة الانصياع بسهولة للجوانب الاعتقادية المشوهة ؟ ؟ وأن هذا المجتمع لم تكن لديه القدرة والحساسية الذهنية والعقلية على تمثل واختزال المفاهيم والجوانب الإيجابية للحياة بنفسه مادياً ومعنوياً فقط ، بل لقد تمتع وما يزال بقدرة وبداهة حضارية جيدة على حماية نفسه من المؤثرات السلبية التى قد يراد فرضها عليه بطريقة أو بأخرى .

وأخيراً فإنه ما من شك فى أن التاريخ والكشف عن المذخور الحضارى الهائل برمته فى هذه المنطقة وإعاده تقنينه ، والذى لا بد وأن يتم قرب الوقت أم بعد ، سوف يزيد من تأكيد هذا الموقف أو يعدل منه ، بصورة نسبية ، ونحن لا نريد أن نستبق الزمن ونقطع دابر البحث والتأمل تحمساً عشوائياً لهذا الموقف ، بقدر ما نحن نقدمه من خلال كل ما استطاعت الوقائع والحقائق المادية المتاحة أن توفره لنا من ثقة واطمئنان علمى فى اختزاله واستخصلاصه من خلالها ، وذلك أن الأمانة العلمية يجب أن لاتجعلنا نضع مواقفنا وآراءنا الخاصة فوق حقائق العلم والواقع ،وهو الأمر الذى دفع بعض المجتهدين المعاصرين خطأً إلى القول بفكرة «السجية الفردية للمجتمع اليمنى » التى تحدث عنها زيد الوزير بإسهاب فى كتابه محاولة لفهم المشكلة اليمنية الذى نشر عام ١٩٧١ ، التى أراد أن يؤكد من خلالها —بطريقة فجة —تأصل قيم وسجايا روحية ودينية وحضارية فى الشعب اليمنى ترتكز بالدرجة الأولى على فكرة تمسكه بالإمامة ، حيث يقول فى صفحة (٨٠) مانصه : إن وجود إمام على رأس الثورة يتسق وتقاليد إرث طويل فى تاريخ اليمن ، إذ أن المنطق يفرض علينا أستناداً إلى واقع المجتمع اليمنى المتدين التسليم بضرورة وجود إمام يدعم من خلال « تملق » عواطف الجماهير المتدينة وجود الثورة ويمكن لها [١] . هذا بالرغم من أنه يؤكد فى مكان آخر من الكتاب ما نصه : بأن حضارة

---

(١) زيد الوزير : محاولة لفهم المشكلة اليمنية ص ٨٠ الشركة المتحدة للتوزيع بيروت ١٩٧١ م .

اليمن القديمة والحديثة ذات مضمون إنسانى وعقلى إلى حد كبير ، وقد اتخذ من حرية الإنسان وسعادته هدفها لها ، وأنا لا أدرى كيف استطاع الأخ الوزير أن يوفق بين المضمون الإنسانى والعقلى للحضارة اليمنية القديمة والحديثة ومفهوم الثورة أيضا وهو ما نتفق معه فى ذلك ، وبين مفهوم « سجية الإيمان بالإمامة» فى المجتمع اليمنى ، وقد كان هو أكثر الناس معرفة والتصاقا بها وأوفر الناس حظاً من خيرها وشرها .

إلا إذا كان يريد بذلك وجود إمام من نوع جديد وهو ما يقصد إليه بالفعل تقريباً ، من ضرورة وجود إمام جديد يمكن للثورة من خلال « التملق والتلاعب بعواطف الناس » فإن مثل هـــذا الفهم وهذا المنطق يبتعد كثيراً وبلا أى صلة بأى تفكير موضوعى أو منطقى سليم ولا يمكن قبوله إلا باعتباره امتدادا لنفس المفاهيم والأنماط الإمامية القديمة المنحطة وأن الإمام الذى يريده زيد الوزير — بوعى تام منه — لايختلف كثيراً عن الأمام الذى أراده ناصر بن مبخوت الأحمر — بسذاجة — حينما وقف فى وجه معارضى الإمام يحيى فى بداية حكمه المشئوم قائلا : الأمامة فى هذا السيد مشيراً إلى الإمام يحى ، ومن خالف فليس له إلا هذا ، وأشار إلى البدقية [١] . . . وإذا كان الأحمر قد نجح وتوصل إلى ما أراد بمساعدته الإمام على الإمساك بالسلطه ولمّى هو وأولاده من بعده جزاء سنمار بعد ذلك، فإنه من حسن حظ الأخ زيد الوزير أنه لم ينجح فى الوصول إلى ما أراد ولم تعد الظروف تسمح بدوران عجلة التاريخ إلى الخلف ، وذلك مع تقديرنا لكل النوايا والمقاصد التى قد تغاير هذا المفهوم لدى الكاتب[٢] .

خاتمة الفصل : نتائج وإستخلاصات عامة

وقبل أن ننتقل إلى مواقف وأحداث لاحقة ، دعونا نتوقف قليلا عند هذه الخاتمة والاستخلاصات العامة من هذا الفصل ، وننظر ماذا يمكن استخلاصه باختصار من مجمل المواقف والأحداث السابقة من وجة النظر الاجتماعية والحضارية المرتبطة بصميم بحثنا هذا ، وسنجد أن أول بديهة

(١) راجع عبد الله بن أحمد النور : ثورة اليمن طبعة القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٨ .

(٢) راجع زيد الوزير : محاولة لفهم المشكلة اليمنية ، أماكن متعددة من الكتاب .

يمكن استخلاصها بسهولة ، هى أن المجتمع اليمنى استطاع أن يتعامل خلال أقل من قرنين من الزمن مع عقيدتين دينيتين هما : « اليهودية والمسيحية » وهما من أعظم ما عرفته البشرية من الديانات والعقائد الكبرى حتى اليوم ، تعامل معهما تعاملا سياسياً واجتماعياً وليس عقائدياً ودينياً على طول الخط ، ثم تخلى عنهما فى نفس الوقت بنفس السرعة وبذات الطريقة بعد أقل من مائة عام من بداية تعامله معهما كتيارات سياسية واجتماعية بالدرجة الأولى. وبالتحديد ما بين عامى ٥٠٠ و ٦٢٠ ميلاديه على أكثر تقدير ، كما سبقت الإشارة فى مكان سابق من هذا البحث وهى فترة الاضطراب التاريخى الشديد التى بدأت بذونواس حوالى العام ٥١٥ وحتى ذو يزن حوالى العام ٦١٠ تقريبا ، حيث كان الإسلام قد بدأ يدق على الأبواب وذلك دون أن يفقد توازنه النفسى والحضارى أمامهما وبفعل تأثيرهما ، رغم ما كان قد أصابه من حالة الضعف والتمزق ، مؤكدا بذلك مدى ما يتمتع به هذا المجتمع من مرونه وقابلية وجدانية وحضارية للأخذ والعطى والتعامل الموجب مع المتغيرات والأحداث بسهولة . ومن موقع القوة والثقة بالنفس التى تحول بينه وبين الاستسلام السلبى لأى متغير مهما كانت طبيعته ومضمونه ، خصوصاً إذا ما تذكرنا ما تواجهه عادة كل المبادىء والدعوات السياسية والأيديولوجية أو الدينية بالذات قديمة كانت أم حديثة مهما كانت مفيدة ونافعة من مصاعب الرفض والمقاومة فى بدايتها بالنسبة لمعظم الشعوب والأمم ، والدعوة الإسلامية التى رفضت فى منبتها ونكل بصاحبها وأتباعه أشد تنكيل وما واجهته أثناء عملية نشرها من مصاعب ومقاومة لم يحل معظمها إلا حد السيف فى أكثر من مكان لأعظم دليل على ذلك .

أما اليمنيون فقد كان لهم موقفهم المتميز من كل ذلك ، فهم قد جربوا اليهودية وتحمسوا لها ، وتعاملوا مع المسيحية وخبروا ما عندها بدافع من أنفسهم دون أن يحملهم أحد على ذلك ، بحثاً عن مخرج وحل لمشاكلهم السياسية والاجتماعية الخاصة ، لا استسلام لفكرة الاعتقاد الدينى فى حد ذاته ، الذى لم يجد له طريق إلى نفوسهم فى أية لحظة خصوصاً فيما يتعلق باليهودية والمسيحية ، اللتان أخفقتا فى أن تقدم لهم حلا لما يعانون منه ، بل اكتشفوا

أنهم قد أضافوا من خلال التعامل معهما مشاكل جديدة إلى حياتهم السياسية والاجتماعية .

وحينما جاء الإسلام تعاملوا معه بنفس الطريقة ولنفس الغرض، وكان أكثر قرباً مما يبحثون عنه ، وإن كان لم يقدم لهم الحل الناجز لمحنتهم التاريخية كما توقعوا حتى اليوم ، إذا ما استثنينا فترات قصيرة ومحدودة من التاريخ سبقت إليها الإشارة كعهد أبي بكر وعمر ، إلا أنه قد ظل وما يزال يشكل انتماثا قومياً ووطنياً وتاريخياً حتى يومنا هذا أكثر من مجرد كونه عقيدة دينيه بالنسبة لحاضر ومستقبل اليمنيين بصفة خاصة والأمة العربية بصفة عامة .

ونود أن نصل من خلال كل هذا إلى مجموعة حقائق اجتماعية هامة ، وذات دلالة واضحة على تفشي ورسوخ المفاهيم العقلانية والعلمانية والعملية ، والزهد في الجانب الاعتقادي في حياة اليمنيين وحضارتهم من ناحية ، والمرونة والقابلية للأخذ والعطاء والتعامل مع كل المتغيرات الخارجية اللاحقة ، لا لذات المتغيرات نفسها دينية كانت أم سياسية أو اجتماعية ، وإنما بحثا من قبل اليمنيين عن استعادة ذاتهم التي أحسوا بضياعها بعد سقوط وتدهور حضارتهم ، ومن خلال هذه المتغيرات التي ما أجدت ولا أثمرت إلا مزيداً من التمزق ومزيداً من الضياع والتخلف حتى اليوم ، وتتمثل مجموعة هذه الحقائق في :

(أ) أن الديانه اليهودية قد وجدت في شمال الجزيرة منذ عهد قديم ولم يكن اليمنيون وهم في أوج حضارتهم المزدهرة بعيدين عن العلم بهذه الديانة وأهلها ، كما أن المسيحية قد وجدت أيضا في فترة لاحقة في نفس المكان وتصارعت صراعاً مريراً ودموياً مع اليهودية والوثنية الفارسية ، تجسدت قمتها في قتل السيد المسيح وصلبه ، ولم يكن اليمنيون وهم لا يزالون كذلك في أوج حضارتهم العقلانية المزدهرة بعيدين عن العلم بهذه الديانة وصراعاتها مع اليهودية ، بحكم انتشار نفوذهم وعلاقاتهم السياسية والاقتصادية على طول وعرض منطقة الشرق القديم وحتى بلاد الهند وغيرها ، بل لقد كان الكثير من اليهود كعنصر بشري — يجدون في اليمن مهرباً ومأمنا لهم من بطش

الأمبراطورية الرومانية التى اعتنقت المسيحية فى وقت مبكر ، وفرضت سلطتها على منطقة الشام بأكملها ، والحصول على فرص العيش والبقاء فى سلام[١] . ومع ذلك فإن اليمنيين الذين لم تكن معتقداتهم القديمة الساذجة تحتل أى دور حقيقى فى حياتهم لم يتأثروا قط ومن باب أولى بهاتين الديانتين المغرقتين فى التعقيد واللاهوتية والميتافيزيقات والدخول فى صراعاتهما المريرة ، ولم يعتنق المجتمع اليمنى أى منهما أو يدين بهما أحد فى تلك المرحلة المبكرة على المستوى الرسمى ، ولا على المستوى الشعبى العام ، لأن ذلك يتنافا وطبيعة التكوين الحضارى والعقلى والاجتماعى القائم والمزدهر من ناحية ، ولأن اليمنيين كان عندهم ما هو أهم وأجدى من مفاهيم الحياة ومضامينها العقلية والإنسانية ، ولديهم ما يعطون أكثر مما يأخذون ، ومنشغلين بما هو أجدى من شئون البناء والتعمير الاقتصادى والسياسى والصراع مع الطبيعة بروح العقل والعلمانية التى لا تعطيهم الوقت ولا تفسح فى نفوسهم وعقولهم المجال للاهتمام باللاهوتيات والميتافيزيقيات ، وتلك هى الحقيقه الأولى .

(ب) الحقيقة الثانية هى أنه حينما توالت عوامل الزمن على أوضاعهم السياسية والاجتماعية ، وتعرضت مرافقهم الاقتصادية الحيوية للخراب من مئات وعشرات السدود وغيرها ، وتفاقمت خلافات دولهم وإماراتهم نتيجة لذلك ، وآلت جميع أمورهم السياسية والاجتماعية إجمالا إلى الانهيار والسقوط الحقيقى بعد خراب مرافق حياتهم الاقتصادية والإدارية ، فى هذا الظرف بالذات الذى بدأت تلوح فى أفقه ملامح أطماع أجنبية واسعة فارسية ورومانية للفوز بنصيب الأسد من كل ما تحمله الأرض السعيدة كما سماها الرومان ، وبعد قرابة خمسة قرون كاملة من ظهور المسيحية فى الشمال وعشرات القرون من ظهور اليهودية ، فى هذا الظرف بالذات أدرك اليمنيون حقيقة هامة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بأن زمام المبادرة قد أفلت من أيديهم ، وأن شيئاً مهما فى نفوسهم ووجدانهم قد تصدع وفقد ، بينما

---

(١) د جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء السادس ص ٥٣٨ .

ثقل الأحداث والمتغيرات تنوء بكاهلها فوق رؤوسهم وتقرع أبوابهم كل يوم بلا توقف ، ووضعوا بذلك أمام ثلاثة خيارات رئيسية يمكن أن يواجهها أى مجتمع حضارى فى مثل هذا الوضع ، فإما أن ينطووا على أنفسهم وعلى ما تبقى فيها من أنقاض متداعية ، ويختزلوا تاريخهم كله فى شكل عقدة ذنب نفسية وحضارية متصلبة يتلذذون بتعذيب أنفسهم من خلالها بقية تاريخهم القادم ، على النمط البوذى فى الهند ، أو اليهودية عند حائط المبكى ، أو الشيعة أخيراً فى كربلاء والنجف وبلاد الهند ،ويديروا ظهورهم نحو كل المتغيرات لتفعل بهم ما تشاء ، إنتظاراً ليوم ميعاد جديد على الطريقة اليهودية ، أو نزول المسيح من السماء على الطريقة النصرانية ، أو إنتظار إمام الزمان المختفى فى احدى السراديب حتى يظهر ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملأت جوراء على طريقة غلاة الشيعة المتأخرين فى الأسلام ؟ وذلك هوالخيار الأول.

وإما أن يستسلموا لكل ما تأتى به المتغيرات ويبتلعوه بغير تذوق ولا خيار أو نقاش ، ويتقمصوا شخصية حضارية جديدة مقطوعة الصلة والجذور بكل ما قبلها ، ولا يقتصر الدور فى هذه الحالة على اعتناق اليهودية أو المسيحية كديانة ، بل لابد وأن يصبحوا كذلك إما أسرائليين أو أحباشاً أو رومانياً أو فرساً ، ديناً ولغة وثقافة وقومية ! ! ، وهذا هو الخيار الثانى ، وإما أن ينطلقوا وهم فى ضعفهم ومحنتهم للبحث عن ذاتهم المفقودة أو ما يعوضهم عنها من مفاهيم ومتغيرات تنسجم وأصول تكوينهم الحضارى، وذلك بالتفتيش والبحث عن ذلك من خلال التعامل مع كل الأحداث والمتغيرات الجارية نفسها بروح من الحذر والأحساس بالقلق النسبى ، الذى لا يسمح بحالة اللامبالاة والجمود والسلبية المتحجرة ، كما فى الخيار الأول ولابنزعة الاندفاع والانفعال المرضى والمحطم لحالة التوازن النفسى والحضارى الضرورية تجاه وطأة المتغيرات والأحداث والذوبان فيها كما فى الخيار الثانى، ويجربوا عما إذا كان فى مقدور مثل هذه المتغيرات أن تقدم لهم تعويضاً لما فقدوه ، وحلا لما يعانونه ، وبالطريقة التى يفهمونها هم ، لابما قد ترغب هذه المتغيرات أن تفرضه عليهم ، وكان هذا حقيقة هو الخيار الثالث الذى تم الأخذ به بطريقة تلقائية وجدلية .

لأننا إذا مالاحظنا من خلال كل التحليلات السابقة ، بأن المضامين المادية والمعنوية لجوهر التكوين الاجتماعى والحضارى للمجتمع اليمنى القديم ، القائمة على العقل والممارسة العملية ، لأدركنا أنه كان من المستحيل أن تنتهى به فى حالة الضعف والسقوط إلى تبنى الاختيار الأول الذى لا نجد له أى صلة أو علاقة أو أصول سابقة فى مرحلة ما قبل السقوط ، بحيث يصير تبنيه هو النتيجة الطبيعية والجدلية الممكنة ، لشدة التنافر والاختلاف بين المقدمات والنتائج فى هذه الحالة ، ولأدركنا كذلك بأن إمكانية تطبيق الاختيار الثانى هو أشد صعوبة واستحالة على أى مستوى من مستويات العقل والمنطق الجدلى والعملى، وأن الاختيار الثالث هو الأقرب إلى طبيعة الأمور وحقيقتها ، وأن القول به كنتيجة منطقية وجدلية وواقعية لكل المقدمات التى سبقت هو الأصح ،وهو ماتم بالفعل وتؤيده كل الدلائل والقرائن المادية والمعنوية والتاريخية حتى اليوم .

ولقد كان أول ما وجده اليمنيون من الأحداث والمتغيرات الجارية من حولهم وهم يعيشون المراحل الأولى من هذا الاختيار الصعب هى- كما رأينا الديانة اليهودية والمسيحية بكل ماحملتاه معهما من مضامين سياسية واجتماعية وميتافيزيقية جديدة مباشرة وغير مباشرة ، فدخلوهما بسرعة « البرق » لاحباً فيهما ، أو لأنهم اكتشفوهما لأول مرة ،لأنهم كانوا يعرفون بوجودهما منذ زمن طويل أكثر من غيرهم ، وإنما بحثاً عن أنفسهم وذاتهم الحضارية الطريدة والمشردة من خلالهما، ثم ما لبثوا أن خرجوا منها بسرعة حينما لم يجدوا فيهما ما يعوضهم عما فقدوه فحسب ، بل إن وصولهما إليهم ودخولهم فيهما قد ضاعف من تمزقهم واغترابهم النفسى ، وأوقعهم تحت طائلة الاحتلال الأجنبى ، كما سبقت الإشارة ، فخرجوا منهما بسرعة بحثاً عن أحداث ومتغيرات جديدة للتشرد والبحث فى نطاقها من جديد عن الضآلة التى صار الأمل فى العثور عليها أكثر غموضاً ، وتلك هى الحقيقة الثانية .

(ج) إن الدعوة الإسلامية التى وافقت إبان هذا المنعطف الصعب فى حياة المجتمع اليمنى ، قد التقطتها أنفاس اليمنيين وأرواحهم المنهكة بسرعة أيضا ،

لأنهم أدركو وأحسوا فيها حقيقة ما يدركه الغريق المنهك الذى يلفظ أنفاسه حينما يمسك بقطعة من الخشب أو قشة من العشب ، لكى يتمكن من خلال التشبث بها من إسترجاع أنفاسه فوق سطح الماء على الأقل، وأحسوا بقربهم منها وبقربها من نفوسهم ، حيث كان يكفى لان يستجيبوا لها ويدافعوا عنها ويتوسموا من خلالها كل أمل مشرق لمجرد أنها دعوة أخوة وقربى عربية ، فما بالنا وقد حملت معها الى جانب كل ذلك الكثير من المعانى والأخلاقيات الإنسانية المضيئة ، إلا أن العقدة الحضارية التى تأصلت بمرور الوقت فى نفوس اليمنيين ، عقدة البحث عن الذات المفقودة وضرورة تأكيدها، كما يتصورنها هم وكما تفرضها المتغيرات ظلت هى الشرط المسبق وغير القابل للنقاش فى كل المواقف القديمة والحديثة ، وهى صمام الأمن الحقيقى بالنسبة لليمنيين ، التى أسيء تقديرها فى أواخر عهد الرسول ، وبداية خلافة أبى بكر كما سبقت الإشارة الى ذلك بالنسبة لأهمية الاستقلال الوطنى من بقايا النفوذ الفارسى أولا، والبدء فى ترسيخ دولة عربية إسلامية موحدة ومتحضرة ، يكون لهم دورهم المناسب فيها ، هو الشرط المباشر وغير المباشر الذى تحمس اليمنيون بناء عليه للدعوة الإسلامية ، ولما خاب أملهم فى ذلك كان رد الفعل المباشر ببساطة وبنفس السرعة فى أواخر عهد الرسول نفسه ، ثم فى عهد أبى بكر ، ولم ينته الأمر إلا بإنتهاء سوء التقدير نفسه كما سبقت الإشارة أيضا بإزالة حكم الأبناء من صنعاء .

(د) إن اليمن واليمنيين قد وجدوا بعد ذلك تحت قيادة أبى بكر وعمر وكما وجدوا قبل ذلك فى عهد الرسول وبداية الدعوة العديد من الفرص التى ترجموا من خلالها كل طموحات نفوسهم ومكنون استعداداتهم الحضارية ، فى إيواء ومناصرة الدعوة والانتصار لها، وتوطيد أسس دولة عربية موحدة فى الجزيرة العربية لأول مرة ، ذات أسس اجتماعية عادلة ومفاهيم إنسانية متحضرة ، ثم حملها إلى خارج الجزيرة فى عهد أبى بكر وعمر على نفس الوتيرة وبنفس المضامين ، حتى تغيرت الأحوال بالنسبة لليمنيين وغير اليمنيين ولجوهر الدعوة نفسها ، بعودة الأرستقراطية الأموية والقرشية القديمة إلى السلطة ، وهى التى حاربت الدعوة خوفاً وحرصاً على مصالحها الاقتصادية والطبقية المهددة، ولم تقربها إلا بالقوة بعد فتح مكة ، فتغيرت بذلك الكثير من الأحوال

والمسارات التاريخية ، ووضع الكل أمام مفترق الطرق من جديد وبلارجعة تقريباً حتى اليوم كما سبقت الإشارة أيضا ، وذهب اليمنيون كل مذهب للبحث عن وجودهم وذاتهم من جديد سواء كانوا داخل موطنهم الأصلي أوخارجه ، فتراهم إما قسمة بين المتصارعين على السلطة من أمويين وعلويين أولا ، ثم عباسيين وفاطميين ثانياً ، وكأنهم ينتقمون من هؤلاء المتصارعين ومن أنفسهم فى آن واحد ، وإما قادة وجنود فتوحات وحروب وهجرات موغلة فى الاندفاع شرقاً وغرباً وشمالا ؛ بحثاً عن مكان أرغد للعيش وهوية جديده للبقاء والاستمرار تحت كل سماء خارج موطنهم ، تاركين من تبقى فيه نهباً للتصرفات العشوائيه فى نطاق الدولة والخلافات الإسلامية المتتالية وحتى عهد ليس بالبعيد ، إن لم يكن الأمر مايزال كذلك حتى اليوم بصورة أو بأخرى . ذلك أنه بالرغم من أن معالم الطريق الجديد والصحيح هى اليوم أكثر وضوحاً ونضجاً من أى وقت مضى إلا أن هذا الطريق ما يزال طويلا ومحفوفاً بالمخاطر وجدير بكل التضحيات .

فإذا كان اليمنيون اليوم يقفون على أبواب أشجع تجربة إنسانية معاصرة فى البلاد النامية ، ويبحثون من خلالها عن وحدتهم وهويتهم الحقيقية وطموحاتهم التاريخية فى وحدة وبناء المجتمع الاشتراكى المتقدم ، فإنه لابد وأن نعى جيداً وبلا أدنى شك بأن أهم المنطلقات التى تقام على أساسها هذه التجربة وتناط بها كل طموحات وآمال اليمنيين الحاضرة والمستقبلة ، هى كما رأينا فى كل الصفحات السابقة منطلقات أصيلة فى واقعنا وتاريخنا ووجودنا نفسه وليست غريبة عنا ، وأن الوعى بها والاعتماد عليها هو عودة إلى الأصل بقدر ما هو إنطلاق نحو المستقبل المشرق .